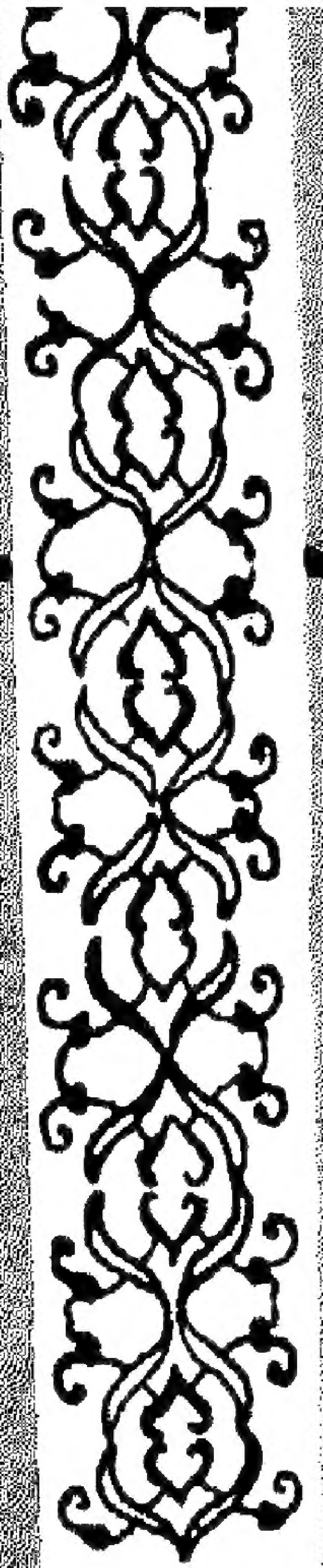
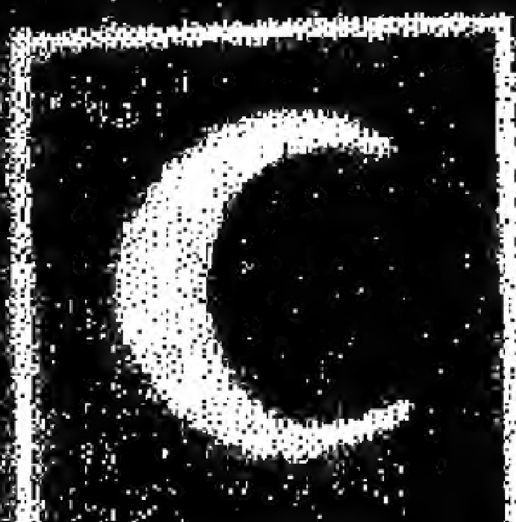
كتاب الهلال



غراميات نابليون بونابرت

تأليف جان سافان



سلسلة ثقافية شهرية



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس التحرير: طاهر الطناحي

العدد ١٥٢ ـ جمادى الآخرة ١٣٨٣ ـ نوفمبر ١٩٦٣

No. 152 — November 1963

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

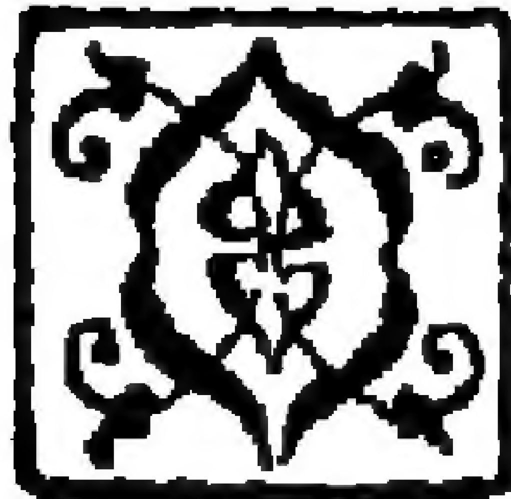
الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى ـ فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا ـ فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف ـ فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنه ، ليبيا : بنغازى وطرابلس ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا



كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

غراميات نابليون بونابرت

تأليف

جان سافان

ترجمة

لطفي سلطان

مقدمة الكتاب

كان نابوليون بونابرت وهو فى منفاه بجزيرة سانت هيلانة يحب كثيرا ان يتحدث مع رفاقه فى المنفى عن النساء اللاتي عرفهن فى حياته . وذات يوم ، نظر الى جورجو قائلا : « اننا سنتحدث حديثا طويلاعن غرامياتنا، وعن النساء» . وفى يوم آخر ، قال لمونتولون : «دعنا نتحدث عن حبنا الاول ! »

ويبدو أن نابوليون قد أسر الى مونتولون بأنه كانت له فى حياته سبع عشيقات . ويذكر البعض انه أضاف يقول وكأنما يوجه اللوم الى نفسه : « انه عدد كبير حقا ! » . ونحن نترك المسئولية فى تحديد هذا الرقم تقع على عاتق مونتولون ، الذى كان مشغولا حينذاك بالكتابة من أجل قضية لويس نابوليون

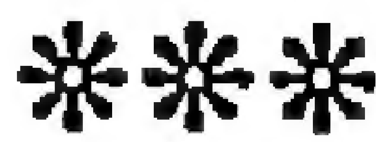
ولكن المغامرات الغرامية التى خاض غمارها ابن كورسيكا الذائع الصيت ، كانت اكثر من ذلك بكثير .. والمؤرخ لحياة نابوليون ، كان من الممكن ان يجد قصصا غرامية لانهاية لها لو ان نابوليون قبل أن تكون له صلة بجميع النساء اللاتى كن يعرضن عليه انفسهن

وفى ذلك كان يقول : « آه لو عرفتم مقدار الدسائس التى اكتشفتها ، وعدد النساء اللاتى ارادوزرائى تقديمهن

لى ! .. لقد كانت لدى « تاليران » دستة من العشيقات كن دائما تحت الطلب ! »

وفى هذا المجال ، يبرز اسم «رينو دى سان جان»وزير الدولة ، الذى كان مشهورا بأنه « زيرنساء» والذى غذى نابوليون بمجموعة من العشيقات . وكان « سان جان » يدعى انهن من الطبقة الراقية ، والصحيح انه كان يجمعهن من فتيات باريس العاملات !

وعلى أية حال ، فالعدد لا يهم ! .. فقدانتصرنابوليون بونابرت فى معارك كيوبيد أكثر مما انتصر فى معاركه الحربية ، وكانت هذه الانتصارات الغرامية من ناحية اخرى انتصارات سهلة .. مما جعل الامبراطور يسمع ذات مرة عبارة قاسية وجهتها اليه « هورتانس » ابنة زوجته « جوزيفين » .. فقد كان نابوليون يفتخر بأنه لم يقابل قط فى حياته امرأة « صعبة » فأجابته «هورتانس» على الفور قائلة : « ذلك لانك لم تتعامل ، ياسيدى ،الا مع نساء متساهلات ! » . وكان هذا صحيحا الى حد ما .. !



والناس ــ لكثرة تخيلهم هذا القاهر العتيد فى صورة من يجعل الجميع يرتجفون من حوله ــ ينسون انه كان خجولا . ويجب على المرء ان يضع فى اعتباره ان نابوليون كان يتعامل مع جنود من واجبهم الطاعة العمياء ، أو مع موظفين مدنيين مرغمين ــ بحكم العادة ــ على الخضوع لمن يدفع لهم أجورهم . ولعل هذا يفسر لنا السهولة التي كان يسيطر بها نابوليون على من حوله . ومع ذلك ، فهناك شهود كثيرون يقررون ان جبروت نابوليون كان يتلاشى فى حضرة أناس مثل الامبراطور فرانز،والامبراطور الكسندر ، والوزير مترنيخ ، وغيرهم ، وان الكثيرين ممن

يحيطون به كانوا يعارضونه ويقفون فى وجهه . ولذا فان عنف بونابرت ـ الذى كان فى معظم الاحيان عنفا مبالغا فيه او متعمدا ـ ربما لم يكن مصدره سوى الخجل ، وبالتالى رغبته فى التغلب على هذا الخجل . ونحن نعلم أيضا أن نابوليون كان يقاسى عقدة من قصر قامته،ولذلك كان دائم التهكم على طوال القامة .. !

كان نابوليون ـ بسبب الخجل ـ لا ينظر قط فى عينى محدثه .. انه كان ينظر اما الى الارض ، أو الى جواره. ومن هنا ، لم يكن مسلحا فى الواقع للقيام بدور « غازى النساء » .. اما عن الشئون الغرامية ، كضرب المواعيد وترتيب المقابلات ، فحتى خدمه يعترفون بأن أبسط الرجال واقلهم مهارة كانوا يتفوقون عليه فى هذه الناحية!

وكان خجل نابوليون يبعث فى نفسه شعورا بالخوف ، فاذا جلس مع فتاة حسناء ، حدثته نفسه بأنه لن يستطيع أن يمتلكها .. ومن الغريب أن هذا الرجل العبقرى النادر الذكاء ، ظل على اقتناع لا يتغير «بأن اجمل النساء هن اللاتى يظفر المرء بهن بصعوبة » .. وقد لازمه اقتناعه الساذج هذا حتى نهاية حياته ! ..

لقد كان نابوليون فى حاجة الى أن يعرف منذ البداية أنه سيكون مقبولا من جانب المرأة ، وأنها ستكون لطيفة فى معاملتها له ، وان جميع السبل ستكون مهيأة امامه. ونحن نراه اثناء سنوات مراهقته يحوم حول الموميسات باحثا بينهن عن وجه «لطيف» .. وقد قال وهو فى جزيرة سانت هيلانة : « لابد ان تكون لطيفة كى تستحوذ على اعجابى .. »

وكان خجله هذا يفقده ثقته بالنساء . ومن ناحية اخرى فهو مدين لهذا الخجل بسرعته وعنفه وقسوته، ونشأ ذلك عن « نقص دفين كامن فى جسمه » .. وهو لم

يحاول قط ان يخفى ذلك النقص ، بل لم يفاجأ به من قاموا بتشريح جثته بعد وفاته



وقد وصف « ستاندال » الكاتب الفرنسي الذائع الصيت ـ نابوليون فى احد مؤلفاته ، وصفا قد يكون فيه كثير من المبالغة ، ولكن فكرته الرئيسية تستحق الأنتباه . يقول ستاندال : « كان الامبراطور يجلس الى منضدة صغيرة يوقع على بعض المراسيم ، وقد تدلى سيفه الى جانبه ، ثم تدخل احدى السيدات فيطلب منها أن ترقد فى السرير دون أن تسبب له أى ازعاج . وسرعان ما يوصلها بعد ذلك بنفسه الى الباب وهو يحمل الشمعدان ، ثم يعود الى قراءة مراسيمه والتوقيع عليها من جديد

« وكان اللقاء فى العادة لا يستغرق أكثر من ثلاث دقائق ، ولم يكن الامبراطور يتخلى أثناء ذلك عن سيفه ، وهو أمر كان يجرح مشاعر النساء جرحا عميقا . . »

فهل كان نابوليون يفعل ذلك كى يظهر لهن احتقاره كما يفترض ستاندال ؟ . . كلا . . ان هذا بالتأكيد ليس صحيحا ، اذ الواقع أن نابوليون ولد محاربا لا عشيقا . ومن هنا كانت « لهجته العنيفة فى الحديث » ، ووقاحة سلوكه التى يغفرها له كاتب مثل فردريك ماسون ، أكبر مدافع عن نابوليون . . انه لم يكن قد درس شئون الغرام والمغازلة ، أضف الى ذلك أنه قد وجد حصادا سهلا ، فلم يكلف نفسه عناء الرقة وحسن المعاملة ! . .

وقد حدث ذات مرة اثناء احدى المعارك الحربية ، أن رآه الجراح الشهير «لارى» يعود الى خيمته وسط دوى المدافع ويصيح قائلا وقد اشتعلت عيناه : « امرأة ! امرأة ! الى بامرأة فى الحال ! »

ولنتذكر أيضا أن نابوليون كان ايطاليا ، وقد تحدث عن ذلك كثيرا .. وكان يعرف اللغة الايطالية منذ حداثة سنه. وقد اتضح انه ينتسب الى ايطاليا اكثر مما ينتسب الى كورسيكا ، وأفكاره عن النساء تماثل تلك التى كانت لصغار النبلاء الايطاليين فى القرن الثامن عشر .. وهى أيضا نفس أفكار ملاك الاراضى الايطاليين فى القرن التاسع عشر ، فالرجل هو السيد ، والمرأة طوع أمره ، ومن ثم ينبغى أن تكون المرأة دائما تحت امرة الرجل !

ذلك هو السبب فى خشونته مع النساء ، وفى ميله القوى « لفضح الاسرار » و « التفاخر بمغامرات الغرام» على حد قول البحاثة الثاقب الفكر اميل دار . لقد كان نابوليون فى عجلة ليروى قصة نجاحه الى درجة تجعلنا نعتقد أنه لم يبحث عن النجاح الا ليتحدث عنه العالم . وكان يجد لذة كبيرة فى فضح العيوب الجسمية لعشيقاته « ويا ويل المرأة التى تستسلم له ان لم تكن فى جمال فينوس ! »

وقد كانت فكرته عن الاخلاق فكرة تدفعه الى أن يحكى اسرار مغامراته الغرامية حتى لزوجته جوزيفين ، وكان يطلب رأيها ومعونتها اذا ما شعر بالحاجة الى التغيير ، وكانت زوجته تتعاون معه تعاونا كان يؤدى دائما الى نتائج مثمرة بالنسبة لكليهما ..!

ونحن نعرف رأى الكثيرات من النساء عنه، ولكننا نحب أن نعرف الشعور الذى كان يتركه فى نفس النساء اللاتى لازمنه لبضعة اسابيع او لعدة دقائق فحسب ، مع استبعاد سلطانه كقائد عسكرى أو كرئيس دولة . ومن المستحيل ان تكون أية واحدة من هؤلاء قد وجدته وسيما من أول وهلة ، ذلك لان الاشعاع الذى كان يسبغه ذكاؤه الخارق على ملامحه لم يكن خليقا بأن يحدث تأثيرا عميقا

فى نفوس عشيقاته . ونحن لا نعـرف كيف كانت ملامحه وتقاطيع وجهه ومظهره على وجه التحديد .. بل ان البون يبدو شاسعا بين ما نعلمه عنـه الآن وعمـا كان عليه فى الحقيقة .. فالبعض يطرون شـكله ومظهره أيما اطراء ، فى حين يصفه البعض الآخر بأنه كان « كئيب الوجه» سوقى المظهر ، ذا نظرة مرعبة »

وعلى أية حال ، فلم يكن نابوليون ذلك العاشق المثالى الذى تحلم به امرأة لا تقيم وزنا للفضيلة ولم تكن قامته القصيرة (١) نفسـها تحوز اعجاب النسوة المتبرجات اللاتى يتأثر غرورهن بمثل هذه الاعتبارات .. فضلا عن أنه لم يكن محدثا لبقاولا راقصا ماهرا .. وقد قالت له الكونتيسة بوتوكا ذات مرة : « انك ترقص جيدا يا مولاى .. لانك نابوليون الرجل العظيم » !

ومن هنا يمكن أن نتساءل : هل كان من الممكن أن تكون لنابوليون حياة غرامية حافلة بالقصص والمغامرات ، لو لم يجعل منه القدر قائدا ثم قنصلا ، ثم امبراطورا ؟ ..

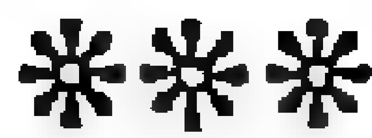
***

وقد كان نابوليون يفضل الشقراوات على السمراوات وذوات القوام الممتلىء على النحيلات .. كان ينفر أيمـا نفور من المتحذلقات والمتكلفات فى الحديث ، فهو يريد من المرأة أن تكتفى بالعمل فى حدود الاختصاص الذى يفرضه لها ، كاعداد الزهور والورود ان كانت من المجتمع الراقى ، أو خدمة بيتها ان كانت من عامة الشعب . وكثيرا ماكان يستعمل نفس الكلمات التي يستعملها الجنـد فى وصف النساء ، مثل : امرأة مائعة ، أو عاهرة .. وكانت هذه الكلمات تتردد على شفتيه سواء أكان الامر يتعلق بعشيقات قواده ، أم بالامهات اللاتى يحملن أولادهن ويطالبن بالخبز

(١) كانت قامة نابليون اقل من ١٧٠ سنتيمترا

أمام المخابز . ولانه لم يكن يعرف كيف يتحدث مع النساء، تراه يسلك معهن فى صالوناته نفس السلوك الذى كان يسلكه مع جنوده أثناء نوبة من الاستعراض أو التفتيش .. فهو لم يوجه قط لاحداهن كلمة مجاملة رقيقة، وانما كان يسألهن دائما أسئلة محرجة ، أو يخاطبهن بعبارات جارحة . وبلغ من خشونته انه كان يسأل كل واحدة عن عمرها ، وكثيرا ما كان المرء يسمعه يصيح قائلا : « آه!. يا لتسريحة شعرك الكئيبة ! » .. أو : « من ذا الذى جعلك ترتدين ثوبا مثل الشوال ؟ » .. أو : « ان ثوبك هذا قذر جدا ! .. الا تغيرينه ابدا ؟.. لقد رأيته عليك عشرين مرة من قبل ! »

وذات مرة ، خاطب سيدة خجول بقوله : « أليس لك أبناء ؟ آه ..! أننى أعرف تماما ان الذنب ليس ذنبك .. ولكن فكرى فى طريقة تنجبين بها أطفالا . اننى بهذا اسدى اليك نصيحة طيبة ! »



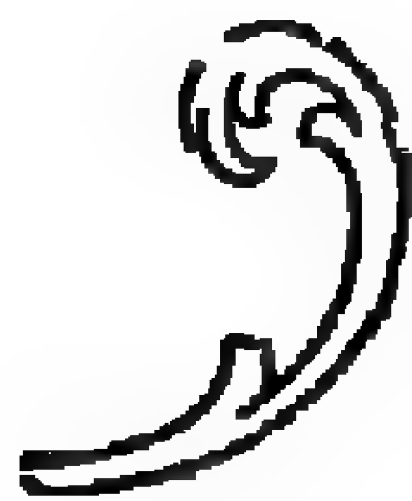
ولا يمكن ان يفسر عدم تفهم نابوليون للاخلاق الا بنقص فى التربية ، فهو لم يعرف غير حياة الثكنات التى نشأته على عادات خاصة فى اللغة والسلوك . وكثيرا ما شوهد وهو يضع يده على صدر جوزيفين، ويستعمل عبارات لا يستعملها المجتمع المهذب . وكانت أسئلته الخارجة تجعله يتلقى ردودا قاسية فى كثير من الأحيان .. ولم تكن لديه المهارة لتغطية هذه الردود ، لانه ــ وهو رجل التأمل ــ كانت تنقصه حضور البديهة

وبعد هذه المبارزات الكلامية التى كان يخرج منها وقد انتقص من قدره ، كانت أفكاره العدائية عن المرأة تصبح اقوى مما كانت . ومن هنا يمكن أن نفهم سر اضطهاده لمدام دى ستايل ، وآراءه التى كان يصرح بها فى بلاطه

وأمام مجلس الدولة .. فهو يعتبر مثلا أن ماحصلت عليه المرأة من حقوق هو من قبيل الاغتصاب الذى لا يحتمل!. وقد ذكر تاليران : « أن المرأة عدوة شخصية لنابوليون » وسأل نابوليون المشرعين قائلا : « ألم تجعلوا المرأة تعـــد بطاعة الرجل ؟.. ان عقد الزواج يجب أن يتضمن صيغة الوعد من المـــرأة بطاعة الرجل والاخلاص له . ويجب أن تعرف المرأة انها لا تخرج من وصـــاية أسرتها الا لتـــدخل تحت وصاية زوجها .. » . بل لقد طلب أن تضاف الى العقد هذه العبارة : « ان الزوجة لا يحق لهـــا أن تلتقى بشخص لا يعجب به زوجهـــا » . وكذلك قال لاحـــدى السيدات وهو فى جزيرة سانت هيلانة : « ان المرأة ليست الا ضلعا .. انها خادمة الزوج »

لقد وصل نابوليون الى رتبة القيادة بقسط ضئيل من التعليم .. ان عبقريته وغريزته وحدهمـــا كانتا تقـــودانه فى شئون الدولة والحـــرب . وهو لم ينظر الى النســـاء الا من أجل اللذة ، وكذلك لم تنظـــر اليه النســـــاء أكثر مما نظر اليهن .. بل لعلهن لم ينظرن اليه حتى من أجل اللذة !

وعلى الرغم من عبقرية نابوليون التاريخيـــة ، فهو لم يقابل قط المرأة التى تناسبه ، ومع ذلك فان عدد مغامراته الغرامية ، يفوق عدد مغامرات دون جوان ، أو كازانوفا ، أو لويس الرابع عشر !





غرام نابليون

قبل زواجه بجوزيفين

أول غرام

ذات يوم ، وصل الى مدينة فالانس فتى فى السادسة عشرة من عمره يرتدى الزى العسكرى ، وكان من المألوف فى عام ١٧٨٥ أن يرتدى الفتية فى هذه السن زى ضباط الملك .. وهو زى سلاح المدفعية

وكان لهذا الشاب لكنة ايطالية ظاهرة ، سيحاول ان يتخلص منها فيما بعد دون جدوى . ومن ناحية أخرى كان اسمه يثير الدهشة فى نفوس السامعين .. ان هذا الضابط الصغير فى سلاح المدفعية الملكى كان قدعين فى فرقة لافير التى تعسكر فى مدينة فالانس ، واسمه الحقيقى «نابوليونى دى بونابارتى» (١) فمن اين يأتى وزير الحربية بضباط المدفعية هؤلاء لجيش صاحب الجلالة ؟ .. يبدو انه يختارهم من الخارج ، وسوف يكون هذا الشاب مثلا لاهالى جزيرة كورسيكا والتى عارض الوزير شوازوى ـ فيما مضى ـ ضمها لفرنسا .. كما كان الناس يتحدثون فيما بينهم فى هذه المدينة الصغيرة من مدن اقليم دوفينيه ..

واذا كان الوزير شوازوى قد عارض ضم جزيرة كورسيكا الى فرنسا ، فذلك لان هذه الجزيرة الجميلة لم تكن مبعث آمال كبيرة لفرنسا حينذاك . وكان نابوليون

---

(١) الاسم باللغة الايطالية

نفسه يرى ان هذه الجزيرة « مازالت وستظل لزمن طويل تكلف فرنسا الكثير من الاموال » . ولم يكن يستطيع ـ اثناء وجوده فى كورسيكا ـ ان يبنى لنفسه اى مستقبل. ولكن هاهو ذا يرى نفسه ـ وهو لا يزال فى سن المراهقة ـ عضوا فى فئة عسكرية تتمتع بامتيازات كبيرة . ومع ذلك ، فهو لم يقدر هذا الحظ السعيد حق قدره .. فقلبه مفعم بألم دفين بسبب حنينه الى وطنه الصغير ، وبسبب فكرته عن العذاب الذى يلاقيه مواطنوه تحت نير الاحتلال .. انه يخدم فى فرنسا ، ولكنه يطمع فى أن يعسكر فى كورسيكا الى جوار أهله . وسببت له حالته النفسية هذه تعاسة كبيرة

وهو الى ذلك لم يكن اثناء وجوده فى مدينة فالانس مشغولا بما فيه الكفاية .. فالوقت الذى يستغرقه عمله لا يسد كل فراغ أيامه الطويلة ، فما بالك بالليالى ؟ وهو يكتشف أيضا بعد الانتهاء من اليوم الدراسى انه يجهل الكثير من الاشياء ، على الرغم من نهمه الطبيعى للمعرفة. ولذا نراه يطلب من بائع الكتب مؤلفات مارك أوريل لقراءتها ، ويطلب أيضا من مجتمع فالانس ان يمنحه ذلك التوجيه الذى حرم منه فى كلية باريس وفى كلية بريين العسكرية . وعلى أية حال ، فقد لزمه ـ كى يندمج فى مجتمع فالانس ـ ان يستفيد من وساطات ذوى النفوذ .. وساعده على ذلك زملاء من امثال سوربييه ، الذى كان يعيش حينذاك عيشة الامراء

ونظر الناس حينئذ الى نابوليون وكأنه رجل غامض يثير الفضول ، فقد كان قصير القامة ، حليق اللحية ، شاحب الوجه ، نحيل الجسم ، تبدو على وجهه امارات الصرامة والاصرار .. وكانت له شفتان قاسيتان مضمومتان لفرط الانتباه ، وعينان ثاقبتان فاحصتان ، وصوت

عميق ذو رنة غريبة . اما كلامه فكان نادرا ، فـاذا ما تحدث جاء حديثه جافا مختصرا ، وكان وعر الطبـع صعب المعاشرة

واخذ الضابط الشاب يتردد على صالونات مدينـة فالانس ، واستقبلته الكونتيسة دى تورنان ونخبـة من السيدات الاخريات ، وكان يجد متعة كبيرة فى لعب القمار والمخاطرة بمبالغ ضخمة كانت تصل الى خمسة مـلايين من الفرنكات (١) ، كما كان يحب الطعام الشهى ويشترى الكتب ، ويشترك فى الولائم الصاخبة وحفلات الرقص .

وفى احدى هذه الحفلات ، قابل « ايما » أول فتـاة خفق لها قلبه بالحب .. ولكنه كان حبا مقيدا تعسـا يكتنفه كثير من الغموض .. اذ ان نابوليون لم يتحدث عنه ، وهو الذى كان يحب ان يتحدث كثيرا فى مثـل هذه الامور

شاهد الملازم الثانى ، نابوليون بونابرت ، «ايما» ذات ليلة فى أحد هذه الصالونات ، فأحبها على الفور ..بل يبدو انه فكر فى أن يتزوجها . واضطر الضابط الى ان يكتب اليها ليعبر عن مشاعره ، اذ لم يستطع أن يراها ويتحدث معها على انفراد . وطلب منها أن تقابله « بعيـدا عن الاصدقاء » ، وان تحكم حكما عادلا على عواطفه نحوها . واختتم خطابه قائلا : « طاب مساؤك يا «ايما» .. وارجو ان تضعى فى اعتبارك انه لما يحزننى كثيرا ان يحمل الى ردك اخبارا سيئة »

ولم تقتنع «ايما» ، ولكن نابوليون دافع عن حبه لها ..

---

(١) اى ما يساوى خمسة آلاف جنيه .. والارقام الماليـة التى سترد فى هذا الكتاب محسوبة بسعر الفرنك الحالى .

فترددت واخذت تتحدث عن آلامها ومتاعبهـــا ، وعن المشاكل الاجتماعية والعائلية التى تنتظرها من جـــراء ذلك .. وطمأنها بأن العواطف الجياشة الصادقة لا يمكن ان تكون مصدرا للالم فى يوم من الايام . وكان مما كتبه اليها : « اجيبى على يا «ايما» بأن قلبك يتجاوب مع قلبى، وبأنك تهتمين بأمرى وتكافحين من أجلى .. فليحكم قلبك وسأخضع أنا لحكمه .. »

ولكن الحاحه بدأ يثير الفتاة الشابة .. فبعد ان كانت تظهر عدم اكتراثها به ، غدت تغضب وتثور فى وجهه.. وكانت هذه « كارثة كبرى » بالنسبة له ، فهو لم يكن يطمع فى شىء الا أن يعجبها .. بل لعله كان يفضل عـــدم اكتراثها على غضبها . ولكنه راح يؤكد لها اخلاصه وحبه الطاهر الذى ينبع من أعماق قلبه .. ان قلبه لا يمكن أن يخطىء ، ومهما يكن من امر فسوف يكون دائمـــا سعيدا بخدمتها !

وصمتت ايما ، وبدأ صمتها يثير فى نفسه اليأس .. فأعاد الكرة مستفسرا منها عن مشاعرها نحوه ، وسألها عما اذا كان قد أخطأ لانه احبها ؟ .. انه لا يمكن ان يتصور أنها لا تهتم بسعادته وبشقائه : « هل أنت قاسية يا ايما الى هذه الدرجة ؟ .. هل وهبت قلبك لغيرى ؟ .. اننى لا أطلب منك سوى أن تحبى قليلا ذلك الذى يحبك حبـا يفوق كل وصف ، فدعينى اقرأ ما يدور فى نفسك .. »

وفى هذه المرة ، كتبت اليه ترجوه ان يكف عن الكتابة اليها ، بل يبدو انها هددته بافشاء سره ، لان خطاباته قد عكرت عليها صفو حياتها . وحينئذ امسك الضابط الصغير بقلمه للمرة الاخيرة ، وطلب منها الا تنفذ وعيدها ، فهى « طيبة بدرجة لا يمكن معهـا أن تقـدم على اذلاله .. »

وطلب منها ايضا ان ترد اليه خطاباته التى تثير فى نفسها كل هذا الاشمئزاز

وهكذا انتهت قصة اول حب لنابوليون حتى قبل ان تبدأ

ويمكننا ان نتصور اليأس الذى أصابه ، فجعله يفكر فى الانتحار .. لقد عاد الى مسكنه فى مساء اليوم التاسع من مايو عام ١٧٨٦ لكى يفكر فى حياته ، ويستسلم — على حد قوله — لاحزانه العميقة ، وليرى « الى أى اتجاه تتجه احلامه ؟ .. هل تتجه نحو الموت ؟ » .. كلا ، انه لايزال فى « فجر شبابه » ويأمل أن يعيش طويلا ، فما الذى يدعوه الى تحطيم نفسه ؟ ..انه يكره « الجبناء والسفلة والمنافقين » من الناس ، ويفكر فى مواطنيه الاعزاء الذين يقضون لياليهم بين « أذرع زوجاتهم المخلصات » . ومع ذلك فهو يحس بالضيق والالم .. فالحياة ثقيلة الوطأة على نفسه .. انه لا يتذوق شيئا مما تنطوى عليه من سعادة وهناء ، ويلمس الشقاء فى كل شىء .. انه فى سن الحب ، ولكنه لا يقابل سوى الكوارث والازمات .. »



أيام المرح والشباب

لم يدم يأس نابوليون طويلا .. فهناك صالونات أخرى فى مدينة فالانس ، وآنسات كثيرات يترددن على هذه الصالونات .. حقا ان اصغرهن سنا واكثرهن شهرة يفضلن عليه الزملاء المعروفين مثل سوربييه ، الذى يمتلك عربة وجيادا .. ولكن الاخريات لا يمكن ان يرفضن اطراء ضابط شاب من ضباط المدفعية !

وسرعان ما سرت الشائعات بأن نابوليون يحلم بالزواج من الآنسة « لوبرى دى سان جرمان » وفى الوقت نفسه اخذت آنسة أخرى ــ هى « كارولين جريجوار » ــ تزعم ان الملازم الثانى يطمع فى أن يبنى معها عشا سعيدا !

ولكن هذه الادعاءات جاءت فى وقت متأخر ، ولاسباب سياسية .. فقد اصبحت الآنسة لوبرى دى سان جرمان ــ فيما بعد ــ مدام باشاسون دى مونتاليفيه : زوجة لوزير ، وكونتيسة من عهد الامبراطورية . وكان من الطبيعى ان تدعى انها قد اشعلت الحب فى قلب اشهر ابناء مدينة « اجاكسيو » .. ولكن مثل هذه الاقوال ، لم يكن لها من دافع فى الحقيقة سوى اقناع الناس بأنها تتمتع بسلطان كبير لدى الامبراطور ، ولكى تؤثر أيضا على قلب زوجها الوزير ، الذى كان من ابناء مدينة فالانس .. !

وهذا نفس ما اذاعته عن نفسها الآنسة كارولين جريجوار، وكل ما هنالك انها كانت اكثر تحفظا من زميلتها ..وهى تشبه بطلات جان جاك روسو ، الذى كان نابوليون متشبعا وقتئذ بآرائه وافكاره .. !

وكارولين هذه تمثل أيام المرح والشباب بالنسبة للضابط الصغير ، فهى التى عوضته عن قسوة الاخريات .. وكان والدها ــ السيد جريجوار دى كولومبييه ــ يملك أرضا لا بأس بها ، ولكنه لم يجد زوجا لابنته كارولين .. ومن ثم لم يكن هناك من أمل له بعد وفاة زوجته الا ان يزوج ابنته ــ التى سترثه يوما ــ من ضابط فقير قد يغريه المال !

وبالطبع لم ترفض كارولين مغازلة الضابط الكورسيكى الشاب . وفى فصل الربيع والصيف ، جمعت المواعيد بين كل منهما .. وكتب البطل عن هذه المقابلات أثناء اسره الاخير يقول : « لم يكن هناك من هو اكثر طهرا منا ، اننا كنا نرتب مواعيد اللقاء ، ولا زلت اذكر موعدا من هذه المواعيد .. وكانت كل سعادتنا تتلخص فى اننا كنا نأكل الكريز معا » . ومع ذلك ، كان نابوليون من الحرص بحيث لم يغامر بطلب يد كارولين ، ذلك انها كانت تقرب من سن والدته .. !

ومن الغريب ، ان بونابرت قد رد الى هذه الفتاة ــ وهو فى قمة المجد ــ ما كانت قد منحته اياه من مال ، وشاءت المقادير ان يرد اليها ذلك المال بفرنك نابوليون الذهبى ! .. فهى لم تنس ان تذكره بنفسها حينما اصبح فى مركز يسمح له بتوزيع العطايا ، وكانت قد تزوجت من ضابط سابق يدعى كارامبيل بريسبو . وكتب قنصل

فرنسا الاول الى مدام كارولين بريسبو يخبرها بأنه سوف يراها مرة اخرى ، وبأنه سيلحق زوجها باحدى الوظائف .. وهكذا لم يكن لـ « كارولين » ان تندم على بعض المواعيد البريئة التى مكنتها من ان تحصل لنفسها من الامبراطور على لقب باروتة ، ولزوجها على وظيفة مريحة فى ادارة الغابات .. انه الحصاد بعد أيام أكل الكريز !



الاديبة السويسرية

فى عام ١٧٨٦ ، رحل نابوليون الى مدينة ليون مـع آخر مجموعة من فرقته حيث دخلت امراة أخرى فى حياته هناك ..

ففى مدينة ليون ، قابل امراة تكبره سنا بكثير، ولكنها على حد قوله لا تزال قادرة على اثارة المشاعر المتأججة فى النفوس .. اما هذه المراة فهى الاديبة «ماري آجيبه»، السويسرية المولد . وكان نابوليون يطمع حينذاك فى ان يكون لنفسه مركزا ممتازا فى عالم الادب .. ومن ثم فقد فتنته هذه المراة الكريمة ..

وبدأت قصة هذا الحب حين أصيب نابوليون بالحمى، فاعتنت به ماري آجيبه ، وكان يسكن عندها .. واظهر لها نابوليون عرفانه بالجميل ، وتعلقت ماري من ناحيتها بمريضها الشاب الذى استعاد صحته سريعاولكن روايتها التى لاقت نجاحا هي تلك التى كتبتها فى اغسطس عام ١٧٨٦ وهى مع عشيقها الكورسيكى الشاب « نابوليون » فى مدينة ليون !

وقد رأى كل منهما الآخر مرات عديدة ، وكانايتبادلان الرسائل بانتظام .. وكان نابوليون يطلب منها الا تهمل الاحتفال بعيد ميلاد حبهما ، وأن تفكر فيه من بعيد .

وظلت ماري من ناحيتها مستمرة في عطفها عليه . ونحن نجد عدة هبات مالية مقيدة باسمها على دفعات في الحسابات الخاصة بامبراطور فرنسا ، وهي هبات لا تقل بأي حال عن مليون ونصف مليون من الفرنكات(۱) هذا فضلا عن معاش سنوي قدره مليون وثمانمائة فرنك !



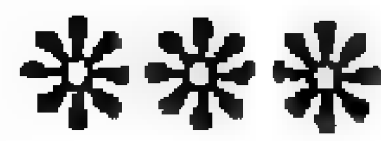
(۱) أي ما يساوي ۱٥۰۰ جنيه

الوارثة الطموح

في بداية شهر سبتمبر ١٧٨٦ م . غادر الملازم الثاني نابوليون بونابرت فرنسا متجها الى أجاكسيو في جزيرة كورسيكا لقضاء أجازة مدتها ستة أشهر .. ويمكننا ان نتصور مدى سعادته برؤية وطنه العزيز من جديد، ولكننا نجهل ما اذا كان قد بدأ يثير الاعجاب حينئذ في قلوب فتيات « أجاكسيو » الجميلات . ويبدو أن سببا جديا قد احتجزه في مسقط رأسه ، انه يطلب ـ في نهاية عطلته هذه ـ أن تمد أجازته ستة اشهر أخرى .. !

واخيرا ـ بعد عام من الراحة ـ ركب السفينة عائدا الى فرنسا . ومع ذلك ، لم يعد الى فرقته على الفور ، وانما توجه الى باريس ، حيث تقدم الى قصر فرساى كصاحب حاجة . وأقام أثناء ذلك في أحد فنادق العاصمة، وهو فندق شاربورج بشارع سانت أونوريه ، وكان يتردد كثيرا على المسارح التى يعشقها ، ويروح ويغدو تحت « بواكى » شارع الباليه رويال ، حيث يتسكع كل يوم عدد كبير من بائعات الهوى . وبعد عودته الى فندقه في الليل ، كان يفتح كراسته ليدون فيها مذكراته ،ويسجل بها مشاعره وأفكاره عن الحب . وفي يوم الخميس ٢٢ نوفمبر ١٧٨٧ ـ وكان حينئذ في الثامنة عشرة من عمره ـ لم يتردد في أن يدون في كراسته وصفا جريئا لليلة

قضاها فى اليوم السابق ، وكانت بطلتها عاهرة صغيرة من مدينة نانت !



ومن باريس اتجه نابوليون مرة أخرى الى أجاكسيو حيث أقام هناك سنة أخرى ، فهل كانت وراء ذلك مغامرة غرامية لا نعرفها فى جزيرة كورسيكا ؟ .. الواقع ان احدا لم يتحدث عن ذلك ، ولكن قد يكون هذا صحيحا ..

وحينما عاد نابوليون الى فرنسا فى يونيو عام ١٧٨٨ ، توجه على الفور الى وحدته التي كانت معسكرة فى مدينة اوكسون باقليم بورجونى ، وبذلك بدأ الجزء الثاني والاخير من حياته العملية .. وكان الجزء الاول قد استغرق مدة ستة أشهر بوصفه ملازما ثانيا ، أما ذلك الجزء الاخير فقد دام مدة خمسة عشر شهرا بوصفه ملازما أول . وامضى بضعة اشهر فى الخدمة فى عام ١٧٩١ .. وبذلك انتهت مدة تدريبه العسكرى والفنى ، وعلى الرغم من قصر هذه المدة ، الا أن عبقريته الكبيرة فى رسم الخطط العسكرية كانت واضحة

وفى مدينة اوكسون ، اقام نابوليون عند صاحب حانة يدعي دومان ، وكان يتناول طعامه مع زملائه ، وهو طعام شهى كثيرا ما تذكره بشوق أيام المنفى . وكانت اعماله العسكرية محدودة حينذاك .. ومن ثم كان يقضى وقت فراغه الكبير فى القراءة والتردد على صالونات مدينة اوكسون المتواضعة ، وفى لعب القمار ومغازلة الفتيات .

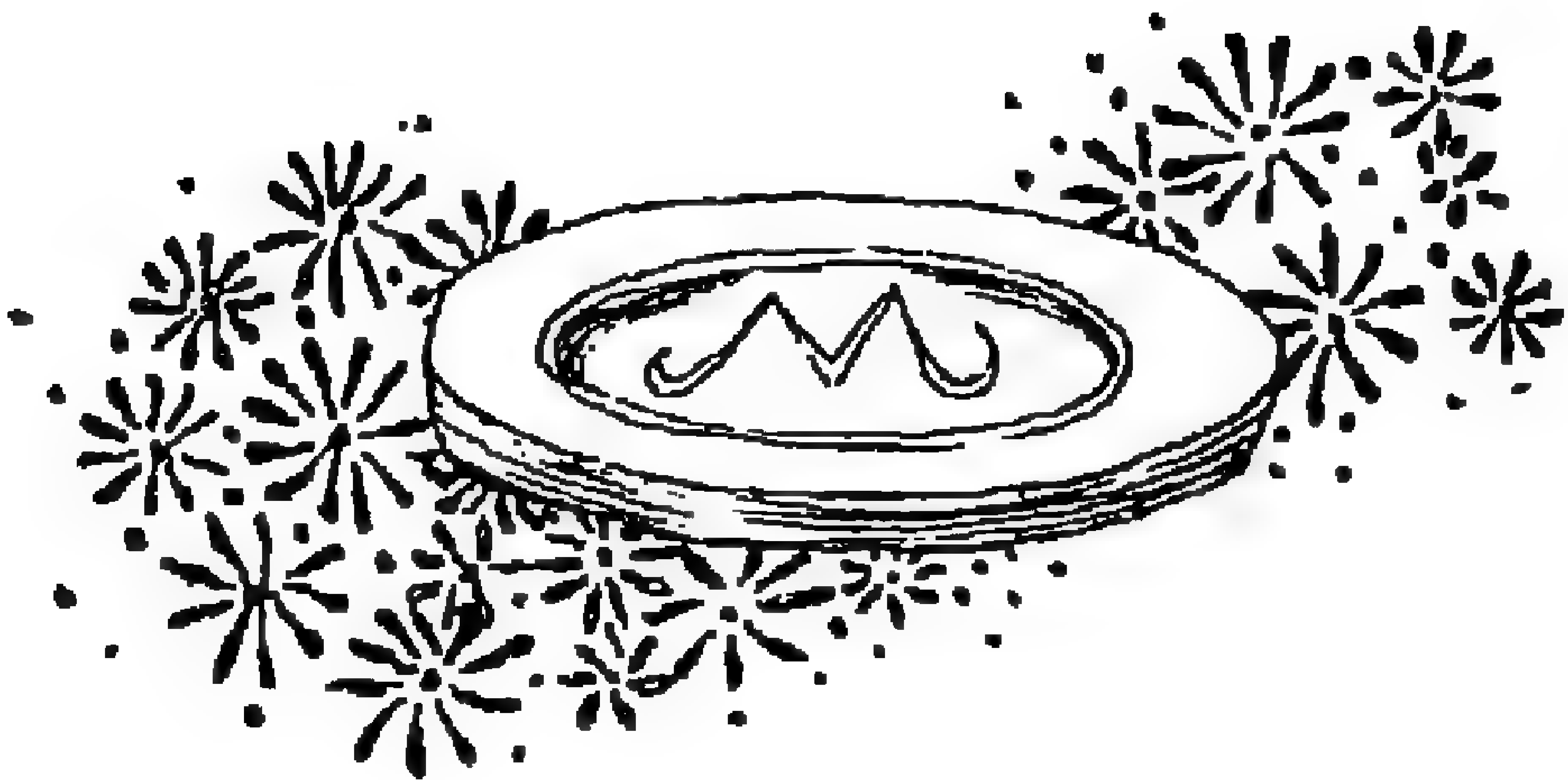
ومن بين تلك الفتيات ، كانت هناك فتاة تكبره بست سنوات تدعى ماريا مرسيريه . كانت لطيفة صغيرة الجسم ، تزوجت آخر الامر من رجل يدعى بابريه ، وظلت تحتفظ حتى وفاتها فى عام ١٨٤٢ م بخاتم من الفضة ووشاح

من الحرير ، تذكارا لحب الملازم نابوليون بونابرت لها ..

وكما فعل نابوليون فى مدينة فالانس ، نراه يحاول هنا ان يربط حياته بحياة فتاة ثرية . وقد اكتشف هذا « الزواج المفيد » ـ على حد قوله ـ فى شخص مانسكابيليه الشابة التى اشتهرت بأنها اغنى الوارثات فى مدينة أوكسون ، وكانت جميلة رقيقة طويلة القامة

وغازلها نابوليون ثم تقدم لطلب يدها ، ولكن طلبه قوبل بالرفض ، فالوارثة الطموح لم تجد فى الملازم بونابرت مايوحي بانه قد يصل الى درجة عالية فى الجيش ، ومن ثم لم يكن بالنسبة لها الزوج الجدير بها .. اما والدها السيد شابير ، فلم يكن يريد لابنته زوجا لا يملك الا «الزى والسيف»

اذن فقد رفض بونابرت .. ولم يبق من هذا الحب سوى «فيشة» عاجية من فيشات القمار ، حفر عليها نابوليون بعناية اسم مانسكا ذات مساء . ولم تظهر مانسكا قط فى حياته حينما وصل الى قمة المجد ، والسبب هو أن نابوليون لم يكن يحب أن يرى أمام عينيه أى أمارة تذكره بفشله !



مدام بربور

كان نابوليون يعترف بجميل النسوة اللاتى بادلنه العواطف الطيبة أيام شبابه .. وقد حدث ذلك بالنسبة لكارولين جريجوار . ومما قاله أحد أمنائه : « ان نابوليون كان لا ينسى قط من أبدوا عطفهم عليه قبل ان يصل الى قمة المجد »

وفى ابريل من عام ١٧٨٩ ، كان نابوليون موجودا فى مدينة سور ، وهى مدينة صغيرة كان الاضطراب قد عمها بسبب نذر الثورة ، فانتقل ضابطنا الشاب الى هناك مع زملائه . ولما وصل اليها ، كانت القلاقل قد انتهت فى المدينة .. ولكن الجو كان لا يزال ينذر بوقوع قلاقل أخرى .. فكان لابد ان يبقى هناك بعض الوقت ..

وتوالت الملذات هناك فى وفرة ، ما بين حفلات للرقص وحفلات للاستقبال ، واخرى للمرح والصخب . ولاحظ بونابرت ان نساء هذه المنطقة « يولين العسكريين اعظم تقدير » . ولم يكن له منافس فى الحب سوى ضابط واحد ، ومن ثم كان الباب مفتوحا أمامه على مصراعيه . وفى يوم عيد الفصح ، وجه اليه صاحب المنزل الذى ينزل فيه دعوة لحضور حفل من هذه الحفلات ، وكان الرجل محاميا ثريا . ومن الطريف ان نابوليون علق على هذه الدعوة

قائلا : « ومع ذلك فأنا أفضل ان آكل طعام بـــلادى فى مدينة اجاكسيو » . وعلى اية حال ، فقـــد كان بالحفل عدد كبير من الفتيات الجميلات ليعوضنه عن « طعام » بلاده . وقد كتب لاخيه جوزيف يقول فى ذلك : « ياللفرصة المواتية ! .. ان الحفلات تقام فى كل مكان ، ويميرنى الناس اهتماما لا تتصوره ! » . ويضيف الى ذلك : « ان النساء يبحثن عنى ويفخرن بالجلوس الى جوارى » . ولكنـــه بالطبع لم يذكر اسم واحدة منهن فى كراسة يومياته أو فى خطاباته

وقصة غرام نابوليون فى مدينة سور غير مشـــكوك فى صحتها ، وبطلتها سيدة شابة جميلة ، كانت زوجـــــة لموظف كبير فى المدينة . ولمـــا كانت هذه القصة معروفة بنتائجها لا بحوادثها ، لذا نفضل روايتها على الوجـــــه الآتى :

فى عام ١٨٠٥ ، بعد أن توج نابوليون نفسه امبراطورا فى باريس ، انتقل الى مدينة ميلانو كى يتوج نفسه ملكا على ايطاليا .. ووقع حادث فى الطـــريق ، فقد رفض نابوليون أن يمر بمدينة ديجون على الرغم من الحـــاح حاشيته . ودهش رجال البلاط من رفض الامبراطور ، ولكنهم سرعان ما ادركوا أنه لاشك يريد ان يتفادى رؤية الاماكن التى شهدت سوء حظه فى الغرام . وعلى العكس من ذلك ، رحب الامبراطور أن يتوقف فى مدينة سور ، حيث كانت تعيش ــ فى عزلة تامة ــ سيدة ألحت فى أن يؤذن لها بالمثول بين يدى عاهل البلاد

ودون كبير الامناء اسم السيدة فى قائمة طالبى شرف المثول بين يدى جلالة الامبراطور ، وتوقفت عينا نابوليون طويلا أمام اسم هذه السيدة ، التى لم تكن غير « مـــدام بريور » !

وارتسمت على شفتى الامبراطور ابتسامة خفيفة، وقال يخاطب كبير أمنائه :

ـ يبدو أنك تعرف انه قد كانت لى بعض المغامرات حينما كنت أعسكر فى هذا الاقليم ، فاحفظ السر ودعها تدخل .. !

واغلق الباب من خلف السيدة التى كان الملازم بونابرت قد أحبها أثناء اقامته فى مدينة سور . ولم يكن نابوليون جحودا ، فقد تفضل على ابنها الصغير بمنحة تعليمية ، كما منح شقيقها وظيفة كبيرة !



نقطة ضعف !

بعد أن اقام نابوليون شهرين فى مدينة سور ، عاد الى مدينة أوكسون من جديد ، واستأنف فيها لعب القمار وقراءة الكتب .. ودامت اقامته فى أوكسون مدة ثلاثة أشهر ، ثم حصل على اجازة من الجيش ، وسافر فى شهر سبتمبر ليرى اسرته فى اجاكسيو ..

ونحن لا نعتقد انه ذهب الى هناك ليرى أسرته وعشيرته فحسب ، ذلك ان الملازم بونابرت كان ينظر نظرة عالية جادة الى واجباته العسكرية . ولو عرفنا أنه غادر مدينة اوكسون فى شهر سبتمبر عام ١٧٨٦ ، ولم يعد اليها الا فى فبراير من عام ١٧٩١ ، لرجحنا انه كانت هناك وراء هذه الاجازة الطويلة مغامرات نسائية اكثر منها سياسية

كان نابوليون حينئذ قد بلغ العشرين من عمره ، وبذلك دخل فى تلك الفترة من حياته التى سيحلو له أن يتذكرها كثيراً فيما بعد . وقد كان — وهو فى جزيرة سانت هيلانة — يذكر هذه الفترة فى كثير من الفرور ، وكان سكرتيره كولانكور — وهو من اكبر المعجبين بنابوليون والمطلعين على أسراره — يرى فى هذا الفخر بالماضى « نقطة ضعف » فى شخصية اعظم قائد عسكرى عرفه هذا العصر . وقد ذكر كولانكور فى مذكراته التى كتبها عن سيده فى

سانت هيلانة انه كان فى سن العشرين «يلاقى نجاحا كبيرا ولا سيما بين الجنس اللطيف »

وذكر كولانكور ايضا أن نابوليون كان يحب ان يتحدث معه عن سنوات شبابه أثناء عودته بالزحافة الجليدية من موسكو بعد كارثـــة عام ١٨١٢ ، وأنه كان يروى بعض تفاصيل مغامراته الغرامية ، ويـردد فى سرور ان بعض سيدات المجتمع « قد فضلنه » حينذاك على غـــيره من الشبان !

وكثيرون ممن كتبوا عن نابوليون ، ينسبـون اليه أنه كان على علاقة بعدة عشيقات أثناء وجوده فى كورسيكا . . ولكننا نود أن نهمل ذلك لعدم وجود أدلة أكيدة ، ولو اننا نحب ان نضيف ان هذه القصص ليست كلها من نســج الخيال فهناك بعض المعاصرين لنابوليـــون ـ وهم أناس جديرون بالثقة ـ شهدوا بقيامه بمغامرات من هـــذا القبيل . ويقص علينا لارى ـ الضابط الجـراح الذى كان يعمل فى جيش بونابرت ، والذى يعد من الثقاة لانه كان يستقى معلوماته من والدة نابوليون ـ يقص كيف ان قائده قد « أثار ذات يوم قلق والدته البالغ بسبب احدى مغامراته الغرامية . » اما بطلة هذه المغامرة ، فهى سيدة كورسيكية هامت به حبا ، وكانت تغار عليه غيرة شديدة ، ومع ذلك ، كان نابوليون متعلقا بفتاة أخرى . . !

وبدأت المأساة حينما علمت المرأة الاولى بخيانة حبيبها ، فقررت أن تنتقم منه ابشع انتقام . . بل لقد نفـــذت بالفعل هذا القرار ودست له السم فى كأس من النبيـــذ حينما جاء ليتناول العشاء عندها ، فى اليوم التالى لاكتشاف خيانته . ولم تمض بضع لحظات ، حتى كان الملازم بونابرت يتلوى من شدة الالم . وما كاد الخبر يصل الى والدته

حتى هرعت اليه على الفور وهى فى اشد حالات الانزعاج وقامت له باسعافات سريعة فى انتظار وصول الطبيب ، الذى تمكن أخيرا من انتزاع الضابط الشـــاب من براثن الموت ..

وقد انتزعت هذه المغامرة نابوليون كـــذلك من ملذات الحياة .. ولكن ليس لفترة طويلة !



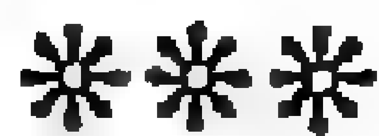
أفكار عن الحب

لما عاد نابوليون من كورسيكا ، توقف قليلا فى مدينة فالانس ، ثم توجه الى معسكره فى مدينة سان فالييه من مدن اقليم دوفينييه .. وكان فى صحبته شقيقه لويس الذى يبلغ الثالثة عشرة من عمره ، وقد أخذه نابوليون ليعيش معه فى المعسكر فترة من الوقت ..

وكان نابوليون يتناول قلمه ليسطر به صفحات جديدة فى كراسة يومياته ، وكان مما كتبه حينذاك : « ان نبات اللبلاب يعانق أول شجرة يقابلها فى طريقه . تلك باختصار هى قصة الحب ! » . ترى ما هـــذه الذكرى التى كان يحملها فى نفسه عن كورسيكا العزيزة ؟ .. أو ما الذى حدث له فى مدينة فالانس ؟ .. وعلى أية حال ، فقـــد تحدث مع نفسه كثيرا عن حاجته الى الحب : « ان الرجل الذى يغادر كورسيكا ليعيش فى بلاد اجنبية ــ بعيدا عن أهله ــ يكون فى حاجة الى علاقة غرامية مافى ذلك شك » .. ويقول : « حقا أن الصداقة تعوض الرجل بعض الشىء .. ولكن الانسان الذى يشعر بالغربة يسهل عليه أن يستمد الحب من عينى امرأة يهفو قلبه اليها .. » .. وهــكذا نرى ان احساسه بالغربة يلهب خياله ، ويذكى فى قلبه حرارة الحاجة الى الحب .. انه يسأل نفسه هذا السؤال : « ما الحب اذن ؟ » .. ثم يجيب عن سؤاله بقوله : « ان

الطبيعة كلها توحي بالحب .. فالحب سيد الانسان سواء اكان ذلك وسط ثلوج ايسلندة أم في لهيب خط الاستواء» .. بل ان الحب فى نظره أكثر من ذلك ، فالرجل لاشيء وهو محروم من الحب ، لانه يعى حينئذ ضعف نفسه وعجزها .. والحاجة الى الخلود تجعل من الضرورى أن يلعب الحب دورا فى حياة الانسان ..

ولكن الحب ـ كما يضيف بونابرت آسفا ـ ليس السعادة كلها .. « فكثيرا ما يوجه كيوبيد سهاما ماكرة تسمم أحلى انفعالات الغرام . ولكن كلا .. ! فالمرء يجد اللذة أحيانا فى الالم حتى أنه يأبى ان يتخلص منه .. ذلك لان من عادة الانسان ان يتمسك بما يملكه ولو كان باعثا على شقائه .. وهو بعد أن يتذوق نشوة الحب ، يخشى على نفسه من وحدة القلب الرهيبة ! »



وأقام بونابرت للمرة الثانية فى مدينة أوكسون فى المدة ما بين ١٢ فبراير ، ١٤ يونيو عام ١٧٩١ .. وهناك ، وجد فى انتظاره دى مازى أحسن أصدقائه ، وكان يحب فتاة تدعى اريلندا . وعلى الرغم من أن نابوليون كان يشعر ـ بدوره ـ بالحاجة الى الحب ، الا أن فتيات اوكسون وسيداتها لم يفكرن فى منحه رضاءهن اثناء هذه المدة القصيرة !

وغضب نابوليون لهذه العزلة التى فرضت عليه .. واخذ يسخط على الحب ويثور قائلا : « اعتقد ان الحب ضار بالمجتمع وبسعادة الانسان الفردية .. نعم ، انه يسبب من الضرر اكثر مما يسبب من النفع .. وكم يكون جميلا لو تخلصنا منه فيرتاح الناس » .. ونحن نرجح ان تنكره هذا لاقواله السابقة لم يكن الا لغيرته من صديقه دى مازى ، ذلك العاشق السعيد .. ولكن نابوليون

لا يلبث أن يعود الى كراسته ليدون فيها من جـــديد :
« أنه بدون المرأة ، لاتكون هناك صحة ولا سعادة » ..
بل انه يريد ان يعلم العزاب فيقول : « ان مسراتهم ليست هى المسرات الصحيحة » .. ويسخر من أولئك الذين يعتقدون ان فى وسعهم ان يعيشوا بدون امرأة ، مؤثرين اشباع لذتهم بنساء الاخرين ، قائلا : « يجب علينـا ان نضحك من الذين يدعون أن الكمال يكمن فى العزوبيـــة فوجود المرأة ضرورى للتطور وتكوين الجنس البشرى »



زوجة القائد العام

كان بونابرت قلما يعيش فى معسكره ، فقد كان يأخذ اجازات كثيرة .. وبعد ان حصل على رتبة مـلازم أول خلال فترة اقامة قصيرة قضاها فى مدينة فالانس ، نراه يأخذ اجازة جديدة مدتها سنة ، فيقضى شطرا منها فى كورسيكا ، والشـطر الاخر فى باريس ..

وكانت الثورة حينذاك تكبر وتتسع .. وقد هجر كثير من النبلاء مراكزهم فى الجيش ، وترتب على ذلك وجود كثير من المناصب الخالية ، مما أدى الى ان يظفر بونابرت ــ بسرعة ــ برتبـة « كابتن » .. وهاهو ذا يذهب من جديد الى كورسيكا ، فلا نراه فى فرنسا بعد ذلك الا بعد تسعة اشهر

ومن الصعب على المرء ان يتابع حياة نابوليون الغرامية خلال سنوات الثورة ، فهو لم يشترك فى الصراع الوطنى ضد الغزاة حينما كان وطنه فى خطر ، ونلاحظ انه كان حينذاك فى اجازة منتظمة على الدوام .. بل ان المعـارك المجيدة التى كانت دائرة فى فالمى وجيماب لم تحظ منه بأى جانب من الاهتمام ، والمرء يراه تابعـا لكورسيكا العزيزة أثناء الاخطار الشديدة التى كانت فرنسا تتعرض لها فى تلك الايام . واخيرا ، غادر نابوليون كورسـيكا فى

يونيو من عام ١٧٩٣ ، حينما طرده مواطنوه بعد ان هددوه بالموت . وفى هذه المرة ، لجأ الى فرنسا مصطحبا معه أسرته ، ومنحته فرنسا هو وعائلته مسكنا محترما ، وفتح له الجيش أبوابه من جديد ، وهكذا نرى الحظ يدفعه دفعات قوية .. !

وبعد ذلك بقليل ـ وبدافع من نشاط بارا وقوته الدافقة ـ بدات العملية الكبرى التى كانت تهدف الى اعادة غزو قاعدة طولون . ونلاحظ ان بارا ـ الذى كان يجعل من نفسه منذ ذلك الحين حاميا لبونابرت ـ سوف يمنحه فيما بعد رتبة جنرال ليقود سلاح المدفعية فى حملة ايطاليا . ولكن كان على نابوليون قبل ذلك ان يلفت اليه نظر بارا ، ومن اجل ذلك كان لابد له من ان يتعرف على الجنرال كارتو ، الذى كان يقود الجيش فى حصار قاعدة طولون . ولم يكن الجنرال كارتو شيخا ـ كما يدعون ـ فقد كان فى الثانية والاربعين من عمره ، حاملا لوسام فرسان سان لويس ، ولم يجانبه التوفيق قط فى رسم الخطط العسكرية . ومن ناحية اخرى كان واقعا تحت سيطرة امراة قوية الشخصية هى زوجته ، التى كانت قد تمكنت بجمالها من قلب هذا القائد العام ، حتى أن كثيرا من الاوامر العسكرية التى كانت تخرج من القيادة العامة ، كانت تأتى بوحى من تأثير هذه السيدة ونفوذها!

وسرعان ماكتشف بونابرت الطريق الموصل الى الجنرال كارتو ـ هذا الوسيط الهام ـ فقد ادرك على الفور انه يجب ان يظفر برضا زوجته الجميلة ، فيتسنى له أن يتميز على غيره ويرتفع الى رتبة القيادة العامة . ومن ناحية اخرى ، فان اطراء سيدة حسناء كهذه لم يكن بالشىء الثقيل على قلب الضابط الشاب .. !

كانت «كاترين اورسولا» زوجة القائد العام سيدة

باريسية فى الثـــانية والثلاثين من عمرها .. وسرعان ما أعجبت بالضابط العصبى الشاب . وقد لام الكثيرون نابوليون لعلاقته المغرضة مع بعض زوجات رؤسائه على الرغم من تظاهره بالاتزان . ولكن من العدل ان نذكران زوجة كارتو قد شغفت به حبا .. فقد زكته ضد مشيئة زوجهـــا وبذلك جعلته يضـــع قدميه على أولى درجات المجد . وانتهى الامر بالجنرال كارتو ان غادر قيـــادة الجيش المعسكر امام قاعدة طولون ليتسلم قيادة حملة ايطاليا .. !

وبعد ذلك بعامين ، وقف الجنرال كارتو موقفا مائعا من القلاقل التى وقعت فى يوم ١٣ فوندميير (١) . وفى ايام حكومة القنصلية ، منحه بونابرت قيادة عظيمة فى هولندا ، ثم عينه مديرا لليانصيب الوطنى ، ومنحه معاشا سنويا قدره مليون وثمانمائة الف فرنك ، وهو ضعف المعاش الذى يتقاضاه عادة من يحملون رتبة «جنرال »

ولم يكن ذلك كل شيء .. فقد ذكرت كاترين، نابوليون بنفسها عدة مرات حينمـــا اصبح امبراطورا . وتذكـــر الامبراطور السيدة الجميلة التى كان يغازلها عند قاعدة طولون حين كان ضابطا صغيرا . ولم يحدث قـــط ان ردها خاليـــة الوفاض فى أية مرة ذهبت اليه .. وكان يمنحها فى كل مرة مبالغ تتراوح بين مليون ومليونين من الفرنكات ، ومنحها ذات مرة مبلغا يساوى الان ماقيمته خمسة ملايين وأربعمائة الف فرنك ..

لقد كانت هذه « المنح الصغيرة » بمثابة تذكارللماضى .. هذا عدا المعاش السنوى الدائم والمرتبات الضخمة .

---

(١) شهر من شهور الثـــورة الفرنسية

وحينما توفى الجنرال كارتو فى ربيع عام ١٨١٣ ، حصلت كاترين حينذاك على معاش يبلغ ضعف ما تحصل عليـه زوجة أى قائد عام .. ذلك لانها كانت قد شغفت حبا بنابوليون حين كان ضابطا مجهـولا منذ عشرين عاما مضت !



مارجريت

فى اليوم التالى لاعادة الاستيلاء على قاعـــدة طولون حصل بونابرت على رتبة جنرال ، وعين ـ بواسطة بارا ـ قائدا لفرقة المدفعية فى حملة ايطاليا . وكان نابوليــون يطمع بعد ذلك فى التقرب من عالم السياسة ، اذ لم يكن هناك طريق اخر اكثر ضمانا للوصول الى مركز القيادة العليا . وفى ذلك الوقت ، كان بعض اعضاء حكومة المؤتمر يشرفون على حملة ايطاليا بالاشتراك مع ممثلى الشعب ، وجاء من بينهم ريكـورد ، وكذلك شقيق روبسبـــيير الشاب ..

وكان من الصعب على بونابرت ان يسير قدما فى طريق المجد اذا اكتفى بالدوران فى فلك دومربيون القائد العام لحملة ايطاليا ، الذى كان رجلا بسيطا لايعرف الدسائس ، ولا يقابل نواب الشعب الا فى القليل النـادر . وسرعان ما اتيحت الفرصة امام بونابرت للاتصال بنواب الشعب بدلا من دومربيون ، وكان نابوليون يأمل فى أن يحل محل دومربيون فى مركز القائد العام ، وكان يعرف ان أحسن الطرق لتحقيق أمنيته ـ وربما اقواها أيضا ـ هو طريق النساء . وكان هدفه أن يستأثر بثقة شقيق روبسبيير ،

معتمدا فى ذلك على ريكورد .. اذن ، لم يبق عليه الآن يصل الى ريكورد هذا ..!

كان جان فرانسوا ريكورد متزوجا ، وكانت زوجته قد جاءت معه .. ولم يتوان بونابرت فى تصويب « بطارياته » عليها .. وكان ريكورد من أواسط فرنسا ، مثله فى ذلك مثل بارا . وقد ولد فى مدينة جراس عام ١٧٥٩ ، اى انه كان يكبر نابوليون بعشر سنوات .. وكان من حكومة المؤتمر ، ومن ثم فقد كان فى صف الذين طالبوا باعدام الملك لويس السادس عشر ، وكان يتمتع بحظوة كبرى لدى روبسبيير وشقيقه

كان ريكورد قد تزوج قبل حصار قاعدة طولون بثمانية أعوام ، من ابنة طبيب جميلة تدعى مارجريت روسينيولي .. وكانت فى الحادية والثلاثين من عمرها حين تعرف عليها بونابرت . وكانت مارجريت تستسلم لحب شقيق روبسبيير ، لانها كانت بذلك تضمن مصير زوجها وأسرتها .. اذن فلو أن بونابرت توصل الى كسب رضا مارجريت ، فلن يرفض له شقيق روبسبيير أى طلب !

وراح نابليون يتابع مارجريت ويوليها اهتماما كبيرا .. فاذا سقط قفازها التقطه لها ، واذا ركبت الحصان امسك بلجامه ، واذا خرجت فى نزهة سيرا على الاقدام سار الى جوارها ممسكا قبعته بيده .. فياله من ذوق ، ويالها من رعاية !.. لقد أحسن هذا الشاب الطموح التصرف حتى نجح آخر الامر فى ان يظفر عن طريقها بثقة روبسبيير وشقيقه معا .. ومنذ ذلك الحين ، نراه يشترك فى جميع الدسائس التى دبرت حتى اليوم التاسع من ترميدور !

ووقعت الكارثة فى هذا اليوم نفسه ، من «جراء قضية اختلاس » .. وبذلك قضى على آل روبسبيير وهددت مشروعاتهم .. واحس نابوليون نفسه بقلق كبير على مصيره ، لاسيما وأن الحكومة كانت قد أخذت تراقب تحركاته المريبة فى ايطاليا .. بل لقد ذهب الامر الى حد انهم نسبوا اليه انه قد اشترك مع روبسبيير الصغير فى اختلاس بعض الاموال . وباختصار ، كان نابوليون مهددا بأن يلقى القبض عليه ثم ينقل الى باريس تحت حراسة مشددة ، ليحاكم هناك أمام محكمة الثورة . اما ريكورد ، فقد قبض عليه مع أول من القى القبض عليهم ، ولكن بارا سيعيد اليه حريته ، وسوف نرى ريكورد يشترك فيما بعد فى المؤامرات التى دبرت ضد حكومة الادارة ، وسيلقى القبض عليه من جديد لاشتراكه فى مؤامرة بابوف ، ثم يطلق سراحه مرة اخرى ! .. وفى ايام حكومة الامبراطورية ، سوف يوضع تحت رقابة شديدة على الرغم من علاقته الوثيقة الماضية بنابوليون حين كان جنرالا ، والذى اصبح الان امبراطورا لفرنسا . وكذلك سوف تأمر حكومة لويس الثامن عشر بنفيه لانه كان قد اقترع فيما مضى فى صف الرأى المنادى باعدام لويس السادس عشر

ولكن نابوليون لم ينس مارجريت . ومن بين الهبات الكثيرة التى منحها لها ولاسرتها ، نكتفى بذكر المنحة الاخيرة التى أخذتها فى فبراير عام ١٨١٣ ، والتى بلغت ثلاثة ملايين وستمائة الف فرنك !

ولكن نابوليون لم يرسل الى باريس مقبوضا عليه كما كان متوقعا ، فقد هدأ غضب نواب الحكومة الذين كانوا يحققون فى التهم المنسوبة اليه .. اذن ، فهو لن يواجه محكمة الثورة ولا المشنقة ، وحتى لن يلقى به فى غياهب

السجن. أما ما وقع ، فلم يزد على هذا الحادث البسيط الذى جعل منه الكثيرون مأساة اسطورية : « كان نابوليون يقيم فى مدينة نيس بايطاليا منذ شهر مارس عام ١٧٩٤ . وكان يسكن هناك فى منزل الكونت لورانتى بالقرب من طريق فيلفرانش القديمة . وكانت علاقته بالكونت وزوجته الكونتيسة علاقات عائلية الى حد انه كان يدعو هذه الاخيرة بوالدته . ومع ذلك ، فلسنا ندرى هل كان يخفى من ناحية مدام لورانتى عواطف مشبوبة أم لا ..

« والذى حدث ، ان قرر نواب الشعب القاء القبض على نابوليون فى شهر أغسطس ، ولكن الكونت لورانتى تدخل لصالحه على الفور .. فراح يرجو ويتوسل ، حتى كللت وساطته بالنجاح ، وأعفى نابوليون بفضله من هذا السفر الرهيب الى باريس »

واكتفى نواب الشعب بأن حكموا بتحديد اقامته فى منزل الكونت ، حيث يقيم ..

وكان عقابا « جميلا » فقد استمر بونابرت فى تناول وجبات الطعام الشهية مع أسرة الكونت ، التى كانت تتكون — عدا الرجل وزوجته — من ولد وفتاتين . وكان نابوليون يفضل اميلى — احدى الفتاتين — التى كانت تشاركه نزهاته تحت اشجار البرتقال ..

وتقدم نابوليون يطلب يد الفتاة .. فهل كان يرغب حقا فى أن تصبح «اميلى» الصغيرة زوجة له ، ام انه كان يقوم بلعبة الغرض منها صرف الانظار عن المرأة الحقيقية التى يحبها : مدام لورانتى ؟ .. ومهما يكن من أمر ، فقد قوبل طلبه بالرفض ، وبررت الكونتيسة رفضها بأن ابنتها لا تزال فى الرابعة عشرة من عمرها ..

وان ما يلفت النظر حقا ، هو ان احدا من أسرة لورانتى

لم يظهـــر فى باريس أو فى قصر التـــويليرى ابان حكم بونابرت . بل ان لورانتى لم يحظ من نابوليون بأية ميزة او منحة .. وقد عـــلق الكونت على ذلك بقوله : « ان حظوة العظماء لا تمنح الا لاولئك الذين يلحون فى طلبها »



حرب للتسلية

فى اغسطس من عام ١٧٩٤ ، طويت قضـية الجنرال بونابرت .. ولكنه لم يسترد منصبه كقائد للمدفعية فى حملة ايطاليا . وتم الاتفاق على أن يخدم نابوليون — فى صمت وبغير لقب رسمي — فى هيئة أركان حرب الحملة، ومع ذلك يعد فى نظر الجميع نائبا لقائد المدفعية الجديد

وكان نابوليون يتوق لأن يتولى ادارة عمليات الجيش .. ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟ .. ان نائبى الشعب ساليسيتى والبيت لم يعودا يرغبان فى التعاون معه . وفجأة ، ظهر فى باريس نائب آخر من نواب الشـعب يدعى لويس تورو وكان ضابطا من الحكام ، ونائبا فى الجمعية التشريعية ثم فى مجلس المؤتمر ..

كان تورو قد تزوج منذ وقت قريب من فتـاة من مدينة فرساى فى الرابعة والعشرين تدعى «لويز جوتييه» ولما كان يريد ان يهيىء لزوجته رحلة شهر عسـل جميلة على شاطىء البحـر المتوسـط ، فقد قرر أن يسـافر الى هناك فى « مهمة رسمية » . وفى ٢١ سبتمبر عـام ١٧٩٤ ، نزل تورو فى بلدة كيرو ترافقه زوجته الجميلة الشابة ، وسرعان ما ظهر نابوليون فى نفس هذه البلدة فى اليوم التالى !

ولم يضع الجنرال بونابرت وقتا ، ونصب شباكه على الفور حول الوافدين الجديدين . ومن حسن حظه ان المواطنة تورو كانت لطيفة للغاية ، ولم تكن من النوع المخلص جدا لواجباته الزوجية .. بل لقد كانت من « السخاء » فى هذه الناحية بحيث تسببت فى انتحار زوجها بعد ذلك بعدة سنوات . واستطاع بونابرت أن يثير فضولها بقامته القصيرة وشكله الفريد .. وسره ذلك ايما سرور . ولم ينقض وقت طويل ، حتى كان قد امسك فى يده بزمام الامور فى القيادة العامة !

وبفضل لويز أيضا ، ارتدى لويس بونابرت ـ شقيق نابوليون ـ الملابس الفاخرة ، وهو الذى كان يظل الى جوار اخيه بلا عمل ، فقد انفقت عليه عشيقة نابوليون وساعدته بالعتاد والسلاح حتى أنعم عليه فجأة برتبة ملازم فى المدفعية !

وذات يوم ، اراد نابوليون ان يسلى عشيقته ، فلجأ الى طريقة غير مألوفة .. فقد جعلها تشاهد حربا صغيرة أمر بشنها خصيصا من اجلها . ومن الغريب ان نابوليون هو الذى اعترف بذلك فى مذكراته التى كتبها فى سانت هيلانة ولنقرأ ما كتبه فى ذلك :

« كنت حينذاك شابا حديث السن .. كنت سعيدا وفخورا بنجاحى فى هذا الحب الصغير . ومن ثم فقد حاولت ان أعبر عن سعادتى بكل ما أملكه من طاقة . وانتم ولا شك ستدركون توا كيف يمكن ان يكون استغلال النفوذ ، وكيف يتعلق مصير الناس احيانا بشخص من الاشخاص ولكننى لم اكن اسوأ من غيرى على اية حال ..

« وكنت اصحب لويز للنزهة فى المراكز العسكرية

بضواحي جبال تاند . وذات مرة ، خطر لي ان اجعلها تتمتع بمشاهدة حرب صغيرة ، فأمرت الوحدات الامامية بأن تشن هجوما على العدو ، وكان هذا الهجوم نزوة عابرة ..

وصحيح اننا كسبنا المعركة ، ولكن كان من الممكن ان يؤدي هذا الهجوم الى نتيجة سيئة . وعلى اية حال ، فقد خسرنا فيها بعض الرجال .. »

وأضاف نابوليون بعد ذلك يقول انه كان يلوم نفسه كثيرا على نزواته هذه مع لويز ، كلما عادت ذكراها الى نفسه ..

***

وقد أثرت لويز مدة طويلة في حيـاة بونابرت . ولما صار قائدا عاما لحملة ايطاليـا في عام ١٧٩٦ ، كان يصطحبها معه ــ هي وزوجها ــ وقد انتحر زوجها تورو في نفس ذلك العام ..

واخيرا هجر نابوليون عشيقته ولم يرها الا بعد ذلك بعدة سنوات .. وعندما رآها كان في قمة مجده وثرائه وسلطانه .. اما لويز ، فكانت قد أصبحت فقيرة مجهولة، ولكنها افلحت آخر الامر في المثول بين يدى الامبراطور في يوم من أيام عام ١٨١٠ ، وكان نابوليون يصطاد في غابات مدينة فرساى .. وقد ساعدها في ذلك الماريشال برنييه ، وكان بدوره من أبناء مدينة فرساى

وسألها الامبراطور قائلا :

ــ لماذا لم تذهبي الى اصدقائنا الذين كنا نعرفهم في الجيش في مدينة نيس ، كي تصلي الي ؟ فالكثير منهم قد اصبحوا من الشخصيات الكبيرة ، وهم على اتصال دائم بي ..

فأجابته لويز قائلة :

ـ لقد انقطعت صلتى للاسف ـ يا مولاى ـ بينى وبينهم منذ ان أصبحوا من العظماء ، وأصبحت انا بائسة . .

وسر نابولبون باجابتها ، وحقق كل احلام عشيقته السابقة ، بل واكثر من ذلك ايضا . وبعد هذا اللقاء ببضعة أيام ، وقع على مرسوم امبراطورى بمنح لويز معاشا سنويا أمبراطوريا يساوى ما قيمته اليوم مليون وثمانمائة الف من الفرنكات . ويبدو كذلك انه قد منحها فى العام التالى ـ اثر فترة قضاها فى قصر تريانون بواسطة خادمه الخاص كونستان ـ مبلغا كبيرا من المال يقدر اليوم بسبعة ملايين ونصف من الفرنكات . .

حقا ان كرمه كان يفوق الوصف مع النساء اللاتى لم ترفضن له طلبا !



الخطيبة الصغيرة

تعتبر سنة ١٧٩٥ آخر السنوات التى شاهدت نابوليون شخصا مغمورا • وفى أوائل شهر يناير من نفس هـــذه السنة ، ذهب الى قاعدة طولون لتنظيم حملة ضـــد كورسيكا . ومن هناك ، توجه الى مارسيليا حيث أقام مع شقيقة الاكبر جوزيف بونابرت . وكان هذا الاخير قد اكتشف فى هذه المدينة فتاة وارثة قبيحة الشكل ، ولكنها كانت على أخلاق كريمة .. فقدم نفسه الى أسرتها على انه الكونت دى بونابرت من ضحايا الثورة ، ولم يصادف ثمة صعوبة فى التقرب من أسرة كلارى هذه ، وكان اهلها من التجار الذين هبط عليهم الثـــراء •• ولذلك كانوا يعشقون كل ماله علاقة بالنبلاء .. وانتهى الامر بأن تزوج من ابنتهم جولى كلارى ..

ولم يكن نابوليون قد حضر حفل زفاف شقيقه جوزيف على جولى كلارى ، ومن ثم فلم تتح له الفرصة لكى يتعرف على شقيقتها الصغرى أوجينى ديزيريه ، التى كانت تحلم بدورها بالزواج ..

أما الان .. فهاهو ذا يهبط ضيفا على شقيقه الاكبر من مارسيليا ، فيجد نفسه وجها لوجه أمام « ديزيريه » . وعلى الفور ، نشأ حب كبير بين الجنرال الشاب وبين

هذه الفتاة العاطفية الصغيرة التي كانت تتعجل الزواج

ولم تكن ديزيريه فتاة متينة الاخلاق ، ولا سيما أن رب الاسرة كان متوفيا . . أضف الى ذلك أن الاخلاق كانت قد بدأت في الانحلال في عصر الثورة ذاك ، ولم يكن لدى هذه الفتاة اي استعداد للصبر او لسلوك الطريق العادي الذي تسلكه بقية النساء. وكان نابوليون من ناحيته لايعرف من التجارب غير تلك التي مارسها مع النسوة المتساهلات!

ولم تكن ديزيريه فتاة رائعة الحسن والجمال ، ولكن كان فى وسع المرء أن يلمس فى شفتيها المكتنزتين نهمها للحب وأن يرى فى نظراتها شوقا وحنينا الى العاطفة . . فهل سقطت جميع الحواجز بينها وبين بونابرت منذ هذا اللقاء الاول ؟ نعم . . والا لما عاد نابوليون الى مارسيليا مرة اخرى فى ربيع نفس هذا العام ، حيث قضى فيها فترة طويلة جديدة . .

ولقد كان نابوليون صريحا حينما ذكر ــ وهو يرقد على فراش الموت ــ أن ديزيريه لم ترفض له طلبا . . بل لقد اضاف يقول : «انها كانت تتسلل خفية الى غرفته لتراوده عن نفسها » . والواقع أنه من الصعب أن يتخيل المرء أنه كان كاذبا ، فقد أكد أستسلامها له فى كلمات واضحة لا تقبل الشك ، والانسان لا يكذب عادة وهو على فراش الموت ! . .

اما عن بقية قصة حبهما ، فقد اعلنت خطبتهما اثناء الفترة الثانية التى قضاها فى مارسيليا . . ولكن حدث ان تلقى نابوليون اثر ذلك أمرا باستدعائه لتسلم قيادة جديدة فى جيش الشرق ؛ ولم يكن هناك بد من أن يسافر ــ على الفور ــ لتسلم مهام وظيفته الجديدة

وفى الثامن من مايو عام ١٧٩٥ ، غادر نابوليون مدينة مارسيليا بعد وداع مؤثر مع خطيبته .. وقد أقسم كل منهما على أن يحب الاخر الى الابد ، وتعاهدا على أن يتبادلا الصور والخطابات . وكررت ديزيريه تقول له وهو يستقل العربة : « حافظ جيدا على هذا القسم الذى أقسمته لى »

ولكن هل استطاع ان يحافظ على قسمه هذا لمدة طويلة ؟ .. لقد كتب اليها أثناء سفره يقول :

« لقد وصلت مدينة أفينيون والحزن يعصر قلبى لفكرة اننى سأظل بعيدا عنك مدة طويلة .. والشىء الوحيد الذى يمكن أن يخفف من ضيقى وألمى ، هو ان خطيبتى الوفية الطيبة ستفكر فى كثيرا وستحتفظ نحوى بمشاعرها الجميلة ، ولولا هذا لما اصبح موقفى محتملا .. !

« اننى لن أتسلم خطاباتك قبل وصولى الى باريس ، وهذا ما يخفف عن نفسى كآبة الطريق .. فتصرفى بحيث أتلقى خطاباتك ــ على الاقل ــ منذ لحظة وصولى . ولقد منعنى فيضان نهر لادورانس من الوصول الى هنا قبل ذلك ، وغدا اصل الى مدينة ليون .. وداعا ياصديقتى الطيبة الحنون ، وتقبلى ذكرى حب سيكون ملكا لك مدى الحياة »

ومع ذلك ، وجد نابوليون بعض التسلية اثناء الطريق !.. فقد عرج وهو فى مدينة فالانس على بيت ريفى وفى عزمه أن يشتريه .. وهناك قابل بعض صديقاته ، حيث قضى بينهن اسبوعا كاملا ، ثم واصل السير عائدا الى باريس

وفى العاصمة ، كان نابوليون يفكر فى خطيبته من وقت

لاخر ، ويبدو أنه لم يكن يفعل ذلك الا لكى يضع نهاية لموضوعها .. فقد كان يمنى النفس حينئذ بآمال عسكرية وسياسية كبرى ، وكان الانتظار يجعله عصبيا على الرغم من نصائح بارا له بأن يتذرع بالصبر ، وكان بارا قد أصبح حاميا له من جديد .. اذن فلم يعد نابوليون يتمسك بالزواج من ديزيريه ، ورويدا رويدا ، قلت المراسلات بين الخطيبين . وكانت من ناحيتها تلومه على ذلك ، خاصة وأن الاخبار كانت قد واتتها بأنه كثيرا ما شوهد وهو يتنزه فى غابة بولونيا فى صحبة احدى ملكات الجمال فى ذلك الوقت ، وهى السيدة تيريزا زوجة تاليان . وكتبت ديزيريه تقول له : « آمل ألا تنسيك نزهاتك فى غابة بولونيا مع مدام تاليان ، خطيبتك الصغيرة الطيبة اوجينى ديزيريه ! »



زواج لم يتم

كان هدف نابوليون واحدا لا يتغير : هو الزواج من امرأة ثرية حتى ولو كانت فى سن والدته !.. وهو لم يكف عن محاولة تحقيق هدفه هــــذا حتى خلال الفترة مابين يونيه واكتوبر ، وهى الفترة التى اتيحت له فيها أعظم فرصة فى حياته . ان « الدوطة » الخاصة بجولى كلارى غيرت مجرى حيـــاة شقيقه جوزيف ، فجعلته يعيش فى بحبوحة من العيش بدلا من تلك الحياة البائسة التى كان قد تردى فيها .. فلماذا لا يفعل نفس الشىء ؟

كان بارا يسكن فى ذلك الوقت عند سيدة بدينة فى العقد السادس من عمرها تدعى مارجريت مونتونزيه ، وكان اصدقاؤها يطلقون عليها اسم مارجريت . وكانت مارجريت هذه مشهورة ــ فى بداية حياتها ــ فى عالم الحب والهيام ، فهى قد أسعدت نبلاء كثيرين ايام العهد الملكى البائد ، وتبعت ذات مرة رجـــلا ثريا من رجال المـــال الى جزر المارتينيك ، ثم انفصلت عنه واشـــتغلت مصممة أزياء فى مدينة سان دومنجو ، واخيرا عادت الى فرنسا ..

وفى باريس ، لمع نجمها مرة اخرى فى عالم الغرام .. ولما اصبحت سيدة ثرية حقا ، غيرت من عملها واشتغلت بالمسرح ، وزاد نفوذها فيه حتى صـــارت مديرة لعدة مسارح وفرق تمثيلية فى «روان» و «هافر» و «فرساى» ، كما صارت مديرة لجميع المسارح التابعة للبلاط . وكانت

الملكة ماري انطوانيت تستشيرها فى كل صغيرة وكبيرة من شئون المسرح .. والقى القبض على مارجريت خلال الثورة ، ولكن حوادث اليوم التاسع من ترميدون انقذت رقبتها من المقصلة .. وكان الفضل فى انقاذها لـ «بارا» . ومنذ ذلك الحين توثقت العلاقة بينه وبينها ، فقدمت له شقة فاخرة فى شارع الباليه رويال ، وكانت تملك جزءا طيبا من هذا الشارع

وكان نابوليون يذهب الى هناك كل يوم لزيارة الرجل الذى يحميه ، ليشكو له الحظ الذى ابطأ كثيرا فى الابتسام له .. ولكن بارا كان يواسيه قائلا : « انتظر ، فسيأتى دورنا لا محالة ! » .. وذات يوم ، اثر شكوى طويلة من نابوليون ، قال له بارا :

ـ هل تريد ان يصعد نجمك بسرعة ؟ حسنا .. اننى سأدلك على الوسيلة ، انها تتلخص فى كلمة واحدة : الزواج .. اننا كنا نفعل ذلك أيام الحكم البائد .. وقد رأيت الكثيرين يفعلونه الان أيضا .. فجميع نبلائنا الذين أفلسوا او ولدوا فقراء ، كانوا يتربصون بفتيات التجار ورجال المال الاثرياء .. وكانوا لا يدعون واحدة منهن تفلت .. ولو امهلتنى بعض الوقت للتفكير ، لعثرت لك على واحدة .. اننى واثق من ذلك ..

ولم يكن «بارا» يشك فى ان كلامه هذا يلاقى قبولا حسنا من نفس نابوليون لانه كان صدى لافكاره ..

وذات يوم ، بينما كان الرجلان يتحدثان معا فى شقة بارا ، دخلت السيدة مونتونزيه فى غير كلفة .. وما هى الا لحظات : حتى اخذ ثلاثتهم يتحدثون عن احداث الثورة وقالت مارجريت تحدث بارا وبونابرت :

ــ انكما ستخرجان منها سالمين .. فانتما رجلان ، بل ومن رجال الجيش بالذات . وحينما تنجوان من الموت ، سرعان ما يواتيكما المجد وتفعلان ما تشاءان .. أما نحن معشر النساء المنطويات ، فليس لنا من سند او نصير . اننا معرضات لكل صنوف الذل والهوان ، ومغلوبات على امرنا على الدوام .. وقصارى القول اننا ملك للمنتصر أيا كان ، لاننا لا نستطيع ان نحارب ..

واضافت تقول فى رقة وهى تنقـــل بصرها بين بارا وبونابرت :

ــ آه !.. لو كانت مشيئة الله الكريم قد ارادت ان اكون رجلا ! .. اننى كنت خليقة حينذاك بالا ادعكما تذهبان وحدكما الى خط النار !

فقال نابوليون يسالها فى اهتمام :

ــ هل تعيش سيدتى اذن بغير زوج ؟.. اذ يجب على الاقل ان تكونى واثقة من انك ستجدين من يدافع عنك فى الوقت المناسب .. !

وحينئذ أخبره بارا بأن محدثته هى المليونيرة مارجريت مونتونزيه ، وعبرت مارجريت مرة أخـرى عن عرفانها بالجميل ، فقالت وهى توجه حديثها الى نابوليون :

ــ أننى مدينة له بحياتى .. وانا سعيدة جـــدا لانه تفضل وقبل أن يسكن عندى فهو الذى يحمينى دائما من الصواعق !

فقال بونابرت :

ــ ومن ذا الذى لا يشعر بالسرور من حمايتـــه لك يا سيدتى ؟.. ان المواطن بارا له أصـــدقاء كثيرون ، ويسرهم جميعا ان يتطوعوا مثله لحمايتك ..

فقالت مارجريت وهى تبتسم له ابتسامة علية :

ـ الحق أقول لك أنه لمما يسعدني كثيرا ان يكون اصدقاء بارا أصدقائي

واقتربت من نابوليون وربتت على راسه مداعبة فى غير كلفة ، ثم انسحبت خارجة بعد أن وجهت الدعوة الى القائدين لتناول العشاء معها ..

وما ان غادرت الغرفة ، حتى راح نابوليون يستفسر من بارا فى شغف عن مقدار ثروتها بالضبط ، وبعد قليل من الوقت ، ذهب بارا ليجس نبضها من ناحية نابوليون .. فترددت فى بادىء الامر ، ولكنه ما لبث أن تغلب على ترددها . واخيرا حل موعد العشاء ، واجتمع ثلاثتهم على مائدة الطعام من جديد ..

واخذ بارا مكانه الى جوار مارجريت ، بينما جلس نابوليون قبالتها ليقوم صديقه بواجبات التعريف ، ونظر كل من نابوليون ومارجريت فى عينى الاخر ..

وبعد ان فرغ الجميع من تناول العشاء ، بدأ نابوليون ومارجريت فى الاتفاق

ويحكى بارا فى مذكراته انه سمعهما يقولان : « اننا سنفعل كذا .. وكذا .. » . وتحدث معها نابوليون عن اسرته ، وكيف أن « والدته واخواته سيقدرون جميعا سيدة ممتازة مثلها » .. انه سيأخذها معه يوما الى جزيرة كورسيكا حالما تسنح الظروف بذلك ، « فهى بلاد رائعة وجوها جميل ، ويستطيع المرء ان يثرى فيها سريعا .. وقد استطاع الكثيرون ان يضاعفوا فيها رءوس أموالهم المتواضعة فى سنوات قليلة .. » وفكر بارا فى نفسه قائلا : « انهما يبنيان فى كورسيكا قصورا على

الرمال .. » واخيرا ، انسحب فى صمت تاركا نابوليون وخطيبته على انفراد

ولكن هذا الزواج لم يتم ، اذ كان مقدرا ان تدفع احداث شهر فوندميير بمصير نابوليون سريعا الى الامام، وان يصبح - بعد فترة وجيزة - قائدا عاما لجيش فرنسا فى الداخل ، فتتفتح امامه آمال اخرى ، وينسى مارجريت .. وهل من المعقول ان يكتفى بزوجة بدينة ، فيجدنفسه مضطرا الى اهمالها او تركها هناك فى كورسيكا كيلا تظهر معه فى باريس ؟

وقد عرف المعاصرون لنابوليون بمشروع هذا الزواج .. وذات يوم من شهر يناير عام ١٨١٢ ، كان احد الكتاب المشهورين يتفرج مع صديق له من الرسامين على معرض للصور فى شارع الباليه رويال . وتصادف ان مرت سيدة عجوز ، فدار بينهما الحديث التالى :

- هل تعرف هذه السيدة ؟

- كلا .. من هى ؟

- انها مارجريت مونتونزيه ..

- آه !.. اليست هى مديرة المسارح ؟..

- نعم .. انها كانت فى بادىء الامر مديرة لمسرح قصر فرساى بامر من الملكة مارى انطوانيت . ولما حققت من وراء ذلك ثروة طائلة ، اراد بارا ان يخدم قائدا معينا : فأعد مشروعا لتزويجه من هذه السيدة ..

- ومن كان هذا القائد ؟

فهمس الرجل فى اذن صديقه قائلا :

- نابوليون بونابرت !



غرام نابليون
بزوجته الأولى جوزيفين

جوزيفين

اذا كان نابليون لم يتزوج من مارجريت مونتونزيه فى خريف عام ١٧٩٥ ، فذلك لانه قابل سيدة اخرى تصلح لان تكون زوجة له .. برغم انه لم يدخل فى حسبانه أنه سيتزوج من هذه السيدة الاخرى . ولكنها بدات تستولى على قلبه منذ اليوم التالى لاحداث فوندمير ، ويمكننا ان نقول أن هذه المرأة كان يحتمل ان تغدو الوحيدة فى حياته .. ونحن لا تعنى بذلك انها كانت الزوجة المثالية الجديرة بهذا الرجل الفذ ، فقد كان لها فى اليوم الثالث عشر من فوندمير تاريخ آخر .. !

فمن هى اذن هذه المراة ؟ ..

انها كانت من خليـــط فرنسى واجنبى ، وكانت قد جربت من قبل سعادة الزواج وشقاءه حين كان نابوليون لا يزال فتى صغيرا فى كلية بريين العسكرية . وكانت تدعى «روز لاپاجورى » ثم ورثت إسم « الفيكونتيسـة دى بوهارنيه » عن اول زوج لها . وفى شهر فوندمير من العام الرابع للثورة ، كانت مدام دى بوهارنيه أرملة منذ اكثر من عام ، لان زوجها الفيكونت الجنرال دى بوهارنيه

كان قد اعدم رميا بالرصاص قبل سقوط روبسبيير بأربعة أيام ..

ان هذه المرأة هى جوزيفين .. وكانت من السيدات اللاتى يترددن دائما على الصالون الاول فى فرنسا .. وهو صالون مدام تاليان ، الذى كان قد اصبح وكأنه بلاط جمهورى آخر .. ولم تكن جوزيفين صغيرة السن أو على جانب كبير من الجمال ، وكان لها ابن وبنتان كبيرتان هما أوجين وهورتانس ، وكانت تحرص على ألا تظهر معهما كثيرا كيلا ينكشف عمرها الحقيقى ، فقد كان من عادتها ـ كما يقول نابوليون نفسه ـ ان تنقص من عمرها الحقيقى اثنتى عشرة سنة ..

فمن اين كانت تعيش مدام دى بوهارنيه ؟ .. وكيف كان يتأتى لها المال الذى يتيح لها الترف الذى كانت تنعم به ؟ . حقا انها لم تكن تعيش مثل علية السيدات فى المجتمع ، ولكنها كانت تحيا حياة لامعة ، فى بذخ ظاهر يوحى بأنها كانت تملك موارد مالية ضخمة .. والواقع أن أحدا لم يكن يعرف مواردها الحقيقية سوى اولئك الذين كانوا يقرضونها المال .. لقد كانت سيدة من النوع الذى يجمع بين فخامة الحياة ، وقلق الاستدانة !

وكان بونابرت رجلا لاخبرة له بهذا النوع من المجتمع الذى كانت تظهر فيه هذه المرأة ، ولذا فقد أذهله « لقب الفيكونتيسة » الذى كانت تتحلى به اغتصابا بعد وفاة زوجها ، كما ادهشته مظاهر العظمة التى كانت تمثلها .. ولم يكن يدرى ان هذا كله لا يعدو أن يكون « ذرا للرماد فى العيون » على حد قوله فيما بعد . لقد ظن ـ كما يقول فى مذكراته ـ ان « البريق ينبعث من فضة حقيقية ، وان الطلاء ينم عن خشب ثمين » .. لقد نظر اليها على

انها سـيدة من المجتمع الراقى .. وها نحن أولاء نراه يحاول أن يسـعى الى مدام بوهارنيه ، التى سـيلقبها بجوزيفين منذ ذلك الحين .. وكانت قد سميت عنـد تعميدها شميث مارى جوزيف روز ، نسبة الى والدها جوزيف ، ووالدتها روز ..

كانت جوزيفين بالنسـبة له سيدة « مغرية » ... لا نستطيع أن نجد كلمة أخرى نصفها بها بهذه الصفة .. وهى من ناحيتهـا كانت متخصصة فى صـيد الرجال العسكريين ، وكان « بارا » من أشهر عشاقها ، وكذلك « الجنرال هوش » .. وسيكون من اشهرهم ايضـا « الكابتن شارل هيبوليت » و « الجنرال مورا » . وكان الجنرال بونابرت ينتمى لهـذه الفئة التى تميـل اليها جوزيفين

وقد تضاربت الاقوال حول موعد بداية قصة هذا الحب .. ولكن الشيء المؤكد ، هو انهما لم يقررا الزواج الا قبل رحيـل الجنرال بونابرت الى ايطاليا بوقت وجيز . وسيحدث بين العشيقين لقاء مؤثر قبل زواجهما بخمسة عشر يوما ، أى ابان المشاورات السرية التى كانت تجريها حكومة الادارة بشـأن تعيين بونابرت قائدا عاما لجيش ايطاليا .. وان ما يلفت النظر حقا ، هو أن نابوليـون سيذكر هذا اللقاء المؤثر فى احـد خطاباته ، وذلك فى صدد الحديث عن « أخطاء » جوزيفين وماضيها الثقيل الوطأة .. ولكن كان ينبغى عليه ان يغفر لها ، فقد كان لهذه المرأة دور كبير فى تحديد مصيره ، فهى التى منحته القيادة الهامة التى كان يحلم بها ، هدية منها مع عقـد الزواج .. ولذا نراه يعود دائما الى جوزيفين الخبـيرة ليركع تحت قدميها وكأنه مذنب صغير !

وبعد . هل كانت جوزيفين جميلة ؟

لقد وصفها معاصروها بأنها الرقة والدلال والفتنة .. وكان فمها جميلا للغـــاية ، ولكن جسمها كان به بعض العيوب ، مثـل كبر حجم القدمين ، وقصر القامة .. أما بداها فلم تكن تنقصهما الرقة والجمال . وخلافا لذلك ، كان فى وسع اى انسان يراها ان يقدر عمرها بأربعين عاما

اذن فهى اكبر سنا من بونابرت بكثير .. ولكن ها هو ذا « بارا » يحثه على الزواج منها ، فهى تنتمى الى العهد البائد والعهد الحاضر فى آن واحد ، فضلا عن ان زواجه من سيدة فرنسية « سيثبت قدميه » ، وينزع عنه الاسم الكورسيكى ، لانه سيصبح حينئذ « فرنسيا تماما »

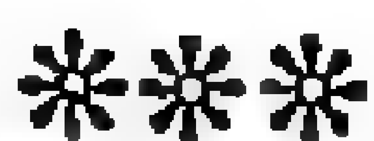
وبالاضافة الى ذلك ، كان نابوليون يعتقد انها ثرية .. وقد قال وهو فى سانت هيـــلانة : « اننى لم اتزوج من جوزيفين الا لاننى كنت اعتقد انها على جانب عظيم من الثراء ، وكثيرا ما كانت تردد هى ذلك » . وقد اكتشف بعد ذلك بالطبع انه قد أخطأ التقدير . وعلى اية حال ، فقد كان نابوليون يعتقد انه عقد « صفقة طيبة »

والواقع ان من الصعب على المرء ان يقرر ما اذا كان نابوليون يعدها جميلة . والمرء لا يستطيع أن يستنتج من خطابات الغرام العديدة التى كتبها نابوليون الى جوزيفين انه كان مفتونا بأشياء مثل جمال وجهها وسحر عينيها أو لون شعرها ، وغير ذلك مما يفتن العشاق ، وانما يبدو فقط انه كان معجبا بجسدها ومداعباتها اللطيفة ..

والظاهر انه اكتشف مهارتها فى مسائل الهوى ومداعبات الغرام اثر ليلة حافلة استخدمت فيها جوزيفين كل خبرتها ومواهبها . ولم يكن من ناحيته يشك قط فى انها امرأة مجربة ، فقد كتب يقول لها فى اليوم التالى : « آه .. لقد

لاحظت هذه الليلة فقط انك لست امرأة عادية » . وكتب اليها بعد ذلك بمدة وجيزة : « لو انك كنت اكثر سذاجة واصغر سنا لما احببتك كل هذا الحب ! » ..

ولما تم عقد الزواج ، غادر نابوليون باريس على عجل ليتسلم مقاليد القيادة العليا فى جيش ايطاليا ، فبدأت بذلك هذه السلسلة الخالدة من خطابات الغرام الملتهبة التى بلغت العنف حد الهذيان ... والتى اسهمت فى خلق الاساطير حول قصة حبهما .. ومع ذلك فلنحن لم نطلع على كل هذه الخطابات ، اذ يلاحظ المرء هنا وهناك فجوات زمنية كبيرة تصل احيانا الى عشرين يوما ، بينما اكد نابوليون انه كان يكتب اليها ثلاث مرات او اربع مرات كل يوم ! اما جوزيفين ، فكانت تكتفى احيانا بخطاب واحد من جانبها . ومن ناحية اخرى فلنحن لانملك بين ايدينا النص الكامل الصحيح لكل هذه الخطابات المنشورة، وقد غيرت بعض سطور هذه الخطابات



توقف نابوليون فى مدينة شاتيون فى الثالث عشر من مارس عام ١٧٩٦ . وفى اليوم التالى ، كتب الى جوزيفين هذا الخطاب من مدينة شانسو :

« ان كل لحظة تبعدنى عنك ، تجعلنى اقل احتمالا لهذا الفراق .. فان الشىء الذى افكر فيه على الدوام هو انت . واحاول عبثا أن أتخيل ما تفعلين بالضبط .. فاذا رأيتك حزينة ، يتمزق قلبى وتزداد آلامى ، واذا رأيتك سعيدة تمرحين مع اصدقائك ، لا املك نفسى من توجيه اللوم اليك ، لانك قد نسيت بسرعة هذا الفراق المؤلم الذى دام ثلاثة أيام . واقول لنفسى انها مرحة وغير

مكترثة بى ، ومن ثم فهى لا تحس من ناحيتى بشعور عميق .. !

« وكما ترين ، فانه من الصعب ارضائى .. ولكن الامر يختلف كل الاختلاف فى حالة ماااذا فكرت فى أنك قد تكونين مريضة ، او حزينة لسبب اجهله .. فحينئذ يتملكنى الغضب لاننى بعيد عنك !

« واذا سألنى احدهم : هل نمت جيدا ليلة أمس ؟ . اشعر ـ قبل ان أجيب عن سؤاله ـ بأننى فى حاجة الى خطاب منك يؤكد لى انك مرتاحة فى كل شىء .. ذلك ان المرض وغضب الناس لايؤثران فى نفسى الا اذا كانا سببين لالمك المكروه .. يصيبك !

« ياصديقتى المعبودة .. اننى لا أطلب من عبقريتى التى حفظتنى دائما وسط المخاطر والمهالك سوى أن تحيط بك فى رفق .. ولست اتمنى شيئا قدر ان اقدم لك نفسى مجردة من هذه العبقرية . آه ! لاتكونى مرحة كل المرح ياعزيزتى ، وانما حزينة بعض الشىء . كلا ! .. بل يجب ان تكون نفسك خالية تماما من الحزن ، وأن يكون جسمك الجميل خاليا من المرض .. اكتبى الى يا صديقتى الحنون ، واطنبى فى رسائلك .. وتقبلى من أكثر القلوب حنانا واخلاصا « ألف قبلة وقبلة »

وبعد هذا الخطاب ، توجد فجوة زمنية مدتها ستة عشر يوما تفصل بينه وبين الخطاب التالى ، وهو الخطاب المؤرخ فى ٣٠ مارس من مدينة نيس :

« اننى لم اكف عن حبك يوما واحدا .. ولم أتناول قدحا من الشاى دون أن العن المجد والطموح اللذين يفرقان بينى وبين روحى وحياتى . وسواء كنت فى غمرة العمل ، او على رأس الجيوش ، أو ممتطيا صهوة

جوادى أطوف به بين معسكرات الجند ، فان معبودتى جوزيفين وحدها هى التى تشغل كل قلبى وتستحوذ على تفكيرى . واذا حدث وابتعدت عنك بسرعة جريان نهر الراين ، فانني لا أفعل ذلك الا لكي أعجل بلقائك من جديد . واذا استيقظت من نومى فى حلكة الليل لاواصل العمل ، فليس لى من دافع لذلك سوى أن أقدم موعد وصول صديقتى الجميلة بضعة أيام . وبرغم ذلك ، أجدك تخاطبيننى قائلة : « انتم » ، فى خطابك المؤرخ فى ١٣ مارس عام ١٧٩٦

« جوزيفين يا زوجتى المعبودة ! كم من الدول تفصل بيننا ، وكم من الوقت ينقضى قبل ان تصلك خطاباتى .. انني لا اعرف المصير الذى ينتظرنى ، ولكن شجاعتى ستخوننى اذا ما ابتعدت عنك اكثر من ذلك . لقد كان هناك وقت أفخر فيه بشجاعتى ، وكنت اتصور أعظم الكوارث هولا دون ان اشعر بالدهشة أو يطرف لى جفن أما اليوم ، فان مجرد التفكير فى أن حبيبتى قد تصاب بأذى كفيل بأن يجمد الدم فى عروقى ، فتذبل روحى

« آه ! أيتها القاسية !.. كيف استطعت ان تكتبى هذا الخطاب البارد كالثلج ؟ ثم ، ما الذى كنت تفعلينه فى المدة ما بين الثالث عشر والسادس عشر من مارس اذا كنت لا تكتبين لزوجك ؟

« ان كلمة « انتم » هذه ، وتلك الايام الاربعة التى لم تكتبى فيها الى ، تجعلنى اندم على عدم اكتراثى القديم .. والويل لمن يكون سبب ندمى !.. انه يجب أن يشعر بنفس ما اشعر به من اعذاب وألم ..

« ان روحى حزينة وقلبى اسير ، والاوهام تبعث الخوف فى نفسى .. فأنت تحبيننى بدرجة أقل من ذى

قبلي ، ولعلك تجدين العزاء فى صديق ما .. وربما تكفين عن حبى فى يوم من الايام .. صـــارحينى بذلك اذن كى اعرف على الاقل كيف اتوقع الكارثة ..

« وداعا يا عذابى وسعادتى وامل حيـــاتى .. وداعا يامن احبها واخشاها .. يامن توحين الى بأرق المشاعر واشدها عنفا . اننى لا اطلب منك حبا ابديا واخلاصـا دائما ، وانما اريد الحقيقة كل الحقيقة ، والصراحة كل الصراحة . وسيكون اليوم الذى تقولين لى فيه : ان حبى لك لم يعد كما كان .. آخر يوم اشعر فيه بالحب أو آخر يوم فى حياتى . واذا كان قلبى لا يستطيع ان يكف عن حبك ، فاننى سأمزقه بأسنانى اربا اربا

« جوزيفين !.. تذكرى ما كنت أقوله لك احيانا : لقد وهبتنى الطبيعة روحا قوية وعزما لا يلين ، بينما خلقت انت من الدانتيلا الرقيقة والحرير الشفاف . فهل حقا كففت عن حبى ؟.. معـذرة يا روح حيـــاتى ، فنفسى مشغولة بمشاريع كبيرة ، وقلبى ملىء بالمخاوف ..

« وداعا !.. واعلمى انك لو كنت تحبيننى أقل ، فمعنى ذلك انك لم تحبينى ابدا .. وحينئذ اكون رجلا يستحق الرثاء ! »

ملاحظة : لقد تغير وجه الحرب تماما فى هـذه السنة يا عزيزتى . وقد أمرت بتوزيع اللحم والخبز على الجند ، والعليق على الخيول .. وسيمضى فرسانى المســلحون قدما الى الامام .. ان جنودى يمنحوننى ثقة لا حد لها .. غير انك انت التى تثيرين احزانى .. أرسل قبلة لاولادك الذين لا تتحدثين عنهم قط ، مع ان ذلك خليق بأن يطيل خطاباتنا بمقدار النصف ! وداعا يا امراة ، وأى امراة !! »

وفى الثالث من ابريل ، تلقى نابوليون عدة خطابات من

جوزيفين ، يبدو ان احدها كان يتجاوب مع مشاعره .. فكتب اليها على الفور هذا الخطاب الملتهب :

« لقد تسلمت جميع خطاباتك ، ولكن احدها لم يؤثر فى نفسى مثل تأثير خطابك الأخير .. ياله من اسـلوب ، ويالها من مشاعر تلك التى تتحدثين عنها !.. انها من نار، ولذا فهي تحرق قلبى المسكين !

« جوزيفين يا حبيبتى الوحيدة .. اننى افقد بهجتى وانا بعيد عنك ، وتصبح الدنيا صحراء موحشة اظل فيها وحيدا بغير متعة .. فبأى فن عرفت كيف تستحوذين على قلبى وكيانى ؟

« ها انذا أحس بأنى اكاد اختنق ..

« جوزيفين .. يامن ساقها القدر الى لتقطـع معى طريق الحياة المؤلم الشاق .. سأتوقف الان عن الكتابة فنفسى حزينة وجسمى متعب .. اننى الان فى يورموريس بالقرب من اونيليا .. وغدا يتحرك الجيشان ويحاول كل منا ان يخدع الاخر .

وسيكون النصر حليفا لمن هو اكثر دهاء واشد مكرا !

« اننى مسرور جدا من غريمى بوليو ، فهو أقوى من سلفه بكثير ، فضلا عن انه يجيد المناورة ، وأتعشم أن أهزمه هزيمة نكراء .. فكونى مطمئنة

« جوزيفين .. أحبينى كما تحبين عينيك .. كلا ،ليس هذا كافيا ، احبينى كما تحبين نفسك ، واكثر من نفسك .. احبينى اكثر مما تحبين روحك وحياتك وافكارك .. احبينى اكثر من كل شيء .. اننى اهذى يا صـديقتى المعبودة ! وليس هذا بالامر الغريب ، لان طبيعة الرجل العنيف تكون أحيانا طبيعة ضعيفة

« وداعـا ، وداعـا .. اننى أنام دون ان تكونى الى جوارى .. نعم ، اننى سأنام بدونك .. فدعينى أنم . لقد مضت عدة ليال وأنا اشعر بأنك بين ذراعى ! ياله من حلم جميل ! .. ولكن وا أسفاه ! فحينما استيقظ ، أجد نفسى وحدى بعيدا عنك »

وبعد ذلك بيومين ، تأثر نابوليون تأثرا كبيـرا لوفاة أحد اصدقائه فجأة ، فكتب الى زوجته يقول :

« الساعة الان الواحدة بعد منتصف الليل .. وقـد تسلمت منذ لحظة رسالة مؤلمة تحمـل الى خبر وفـاة « شوفيه » الذى كان قوميسييرا دائما فى رئاسة الجيش .. وأعتقد انك تعرفينه ، فقد كنت ترينه أحيانا عنـد بارا ..

« اننى اشعر بالحـاجة الى من يواســينى وعزائى الوحيد هو ان اكتب اليك .. فأنت وحـدك تستطيعين ان تؤثرى على حالتى النفسية ، وأنت وحدك من أكاشفها بأحزانى .. ماهو المستقبل ؟ .. وما هـو الماضى ؟ .. وماذا نحن ؟ .. اننا نمضى ونموت وسط غرائب المجهول .. فهل من الممكن ان يكون الرهبان والمنجمون والمشعوذون قد استغلوا هذا الغموض الذى نعيش فيه كى يوجهوا أفكارنا وفق أهوائهم ؟

« لقد مات شوفيه ، كان صديقى الحميم .. انه كان يؤدى للوطن خدمات جليلة ، وكانت آخر كلماته أنه خارج ليلحق بى .. ولازلت أرى شبحه يهيـم أمامى وهو يصفر كعادته .. يا للجنون ! .. أذرف الدموع من أجل الصـداقة .. ومن ذا الذى يستطيع أن يمنعنى من ان أذرف دموعا لا تصلح من الامر شيئا ؟!

« جوزيفين ياروح حياتى .. اكتبى الى مع كل بريد

.. فأنا لا أعيش الا بذلك . اننى مشغول للغاية .. فان « بوليو » يحرك جيشه ، وكل منا يقف فى مواجهة الاخر . اننى متعب بعض الشىء لأنى امتطى جوادى طيلة الوقت ..

« وداعا ، وداعا .. اننى ذاهب لأنام .. فالنوم يواسينى لانه يجعلك الى جوارى ، ويتيح لى ان أضمك بين ذراعى .. تحياتى الخاصة الى بارا وتاليان وزوجته »

***

وكانت « جوزيفين » لطيفة معه هذه المرة ، فأجابت عليه بالطريقة التى يحبها ، بل لقد أكدت له انها كتبت الخطاب بمداد من دمها .. ولكنها لم تكن مستعدة بالطبع لمعاودة الكرة ، أما هو فقد استمر فى الكتابة اليها كعادته ..

وبعد فراق دام قرابة شهرين ، أخذ نابوليون يحثها على الحضور اليه لتقاسمه حياته فى مركز القيادة العامة. وكتب اليها يقول :

« انك لم تكتبى الى منذ أيام .. فما الذى تفعلينه الآن ؟ .. اننى لا اشعر بالغيرة ، وانما بالقلق .. تعالى الى بسرعة . اما اذا تأخرت فستجديننى مريضا لا محالة فان التعب وبعدك عنى أمران لا يمكن احتمالهما على الاطلاق

« اتركى باريس واحضرى مع جونو عند عودته .. هل تفهمين ذلك ؟ وان لم يعد على الفور ، فاخبريه بألا يعود أبدا .. يا للكارثة التى تنتظرنى اذا رأيته يعود بمفرده ! ولكنك ستأتين .. أليس كذلك ؟ .. نعم ،

انك ستكونين هنا بعد قليل .. الى جوارى ، وعلى صدرى ، وبين ذراعى ..

«خذى أجنحة وتعالى سريعا .. نعم ، سريعا .. ولكن سافرى على مهل ،فالطريق طويل وشاق .. تعالى على مهل يا صديقتى المعبودة ، وكونى على اتصال دائم بى عن طريق افكارك ..

« لقد تسلمت خطابا من هورتانس .. انها لطيفة للغاية ، وسأكتب لها حالا ، فأنا أحبها كثيرا .. وسوف أرسل اليها العطور التى تريدها

« اننى لا اعرف ما اذا كنت فى حاجة الى المال .. واذا كان الامر كذلك ، فاطلبى ما تحتاجين من الخى ، فقد أودعت عنده مائتى فرنك من الذهب . أما اذا كنت تريدين توظيف احد ، ففى وسعك أن ترسليه الى ، وسأوظفه فى الحال .. وفى وسع شاتورينو أن يأتى كذلك »

ولم تهتم « جوزيفين » بالامر .. بل لقد كانت تسخر من خطاباته المحمومة ، وتصفها بأنها لا تعدو أن تكون « هذيانا » .. وراح نابوليون يكرر توسلاته ، فكتب اليها فى ٢٩ ابريل يقول :

« جوزيفين يا حبيبتى .. ان مورا ـ الذى سوف يسلمك هذا الخطاب ـ سيشرح لك ما فعلته وما سأفعله . لقد عقدت اتفاقا لوقف اطلاق النار بيننا وبين ملك سردينيا . ولقد كتبت اليك مع جونو ان تأتى معه . ولكن مورا سيصلك قبل ذلك لأنه سيسافر عن طريق تورينو .. وهأنذا الان ارجو منك ان تأتى مع مورا عن طريق تورينو ، لانك ستوفرين بذلك خمسة عشر يوما ..

« اننى أعددت لك مسكنا فى مدينة ماندوفى ، ومسكنا

آخر فى مدينة تورتونى . ومن موندوفى ، يمكنك الذهاب الى جنوا ونيس ، أو الى اى مكان تشائين .. ان سعادتى أن تكونى سعيدة ، ولذتى أن تشعرى باللذة . ان امـرأة غيرك لم تمنح قط مثل هذا الحب والاخلاص والحنان . واذا لم يكن الامر كذلك بالنسـبة لك ، فياللطامة الكبرى ! .. حينئذ سألعن عمى بصيرتى . ولن يفتح قلبى بعد ذلك لاى شعور بالسرور أو الحب .. ان حيـــاتى ستصبح حينئذ حياة مادية حسية لا روح فيها ولعلنى أوفق فى لقاء الموت فى ميدان الشرف ..

« كيف تطلبين منى الا اكون حزينا ، وانت لا تكتبـين الى الا مرة واحـدة كل أربعـة أيام ؟ .. انك لو كنت تحبيننى حقا لكتبت الى مرتين كل يوم .. ولكن يبـدو انك تفضلين اللعب مع هؤلاء السـادة الصغار الذين يزورونك ابتداء من الساعة العاشرة صباحا ، ثم تثرثرين معهم وتستمعين الى شائعات وسخافات مائة صـعلوك وصعلوك حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليـل . ولكن البلاد التى توجد فيها أخلاق ، يذهب كل مواطن فيها الى بيته فى الساعة العاشرة مساء . والنســاء فى مثـل هذه البلاد ، يكتبن الى أزواجهن ويفكـرن فيهم ، ولا يعشن الا من أجلهم .. انك بالنســبة الى يا جوزيفين مخلوق غامض لا أستطيع فهمه ..

« اننى أحبك كل يوم أكثر من ذى قبل .. فالبعد قد يخفف حدة العواطف الصغيرة ولكنه يلهب العـواطف الكبيرة .. اليك قبلة على شفتيك ، وأخرى على قلبك الذى لا يوجد فيه أحد سواى .. أليس كذلك ؟ ..

ملاحظة : لدى هنا خيول وعربات كثيرة ، ستكون كلها تحت تصرفك .. ولا تحضرى معك الا متاعك الشخصى

الضرورى .. اننى احتفظ لك بطاقم جميل من الفضة ، سوف ينفعك كثيرا .. وداعا يا معبودتى فالعمل ينادينى!»

ولكن جوزيفين كانت لا تريد أن تسافر الى ايطاليا مهما كان السبب .. ولما بات من الضرورى أن تختلق حجة للبقاء فى باريس ، لم تجد خيرا من ان تدعى انها حامل . وها هو ذا يكتب اليها فى مزيج من الدهشة والذهول من اجل الخبر السعيد :

« اصحيح اذن انك حامل ؟ .. لقد قال لى مورا ذلك .. ولكنه يقول ايضا ان هذا يجعلك مريضة ، ومن ثم فليس من الخير ان تقومى بمثل هـذا السـفر الطويل . ومعنى هذا اننى سأظل محروما من متعة ضمك بين ذراعى شهورا اخرى عديدة ! .. آه ! .. هل قدر على ان احرم من سعادة النظر اليك وانت حامل ؟!.. لابد ان شكلك الآن لطيف للغاية !

« تكتبين الى أنك قد تغيرت كثيرا .. وقـد لاحظت أنك حزينة وتكتبين بخط مرتعد ، فماذا بك ايتها الصديقة المعبودة ؟ .. آه ! .. لا تمكثى فى الريف ، بل اذهبى الى المدينة وحاولى ان تسلى نفسك .. وصدقينى انه ما من شيء يعذبنى قدر معرفتى انك حزينة .. لقد كنت أعتقد اننى اغار عليك ، ولكننى أقسم لك أن هذا ليس صحيحا .. فانه ليخيل الى اننى افضل ان اقدم اليك ـ بنفسى ـ عشيقا ، اذا كان هذا يبدل حزنك فرحا وسرورا !

« كونى اذن مرحة سعيدة ، فان سـعادتى مرتبطة بسعادتك .. واذا تركت حبيبتى جوزيفين نفسها فريسة للحزن واليأس ، فانها اذن لا تحبنى ..! اننى واولادك سـنظل حولك على الدوام كى نغمرك بعنايتنا وحبنا ، وليس هناك فى الوجود ما هو اجمل من ذلك ..!

« ان الامور هنا تسير سيرا حسنا ، ولكننى قلق بدرجة لا يمكن وصفها .. فأنت مريضة وبعيدة عنى .. اعتنى بنفسك جيدا .. فأنت عندى أثمن من الدنيا كلها »

ولم يفقد نابوليون الامل فى انها ستلحق به ، فأضاف يقول :

« لست ادرى لماذا أشعر بالسرور منذ ان استيقظت هذا الصباح .. فلدى شـــعور دفين بأنك قد اعتزمت الحضور الى هنا .. انك ســـتأتين بالتأكيد عن طريق بيمونت ، لان هذا افضل بكثير .. انك ستحضرين الى ميلانو حيث الطبيعة الجميلة ، وسوف تكونين ســـعيدة هانئة كل الهناء .. أما انا ، فحضورك يسعدنى الى حد الجنون ..

« انك ستأتين الى هنا ، وستنجبين طفلا صغيرا جميلا يشبهك ويحبك كثيرا مثل والده .. ولكن احذرى من ان تحبيه أكثر منى ، فقد بدأت أغار منه !.. وداعا ياحبيبتى! تعالى سريعا لتسمعى موسيقى ايطاليا الجميلة .. ان ايطاليا لا تنقصها سوى رؤيتك .. انك ستجعلينها أكثر جمالا ــ على الاقل فى عينى ــ انك تعرفين ذلك .. فحينما تكون حبيبتى جوزيفين فى مكان ما ، فاننى لا ارى سواها »

واكتفت جوزيفين بأن ابلغته بأنها مريضة ، وبأن هناك ثلاثة من الاطباء حول فراشها .. فكتب اليها نابوليون خطابا عنيفا قال فيه :

« جوزيفين ! .. لقد كان يجب عليك ان تغادرى باريس فى ٢٤ مايو ، ولكنك لم تفعلى .. وحينما تكتبين الى ، فان خطاباتك القصيرة القليلة لا توحى بأى شعور عميق . يبدو ان حبك لى نزوة طارئة .. ويبد انك قد انتهيت الان

من اختبار من سيحل مكانى فى قلبك .. اننى اتمنى لك السعادة ، ولا اقول هذا عن خبث . ان مصيبتى هى اننى لم اعرفك معرفة كافية ، ومصيبتك هى انك قد حكمت على حكمك على سائر الرجال الذين يحيطون بك .. !

« لقد كان كل شيء فيـــك يعجبنى .. حتى ذكرى أخطائك ، وذكرى هذا الشجار المؤلم الذى سبق زواجنا بخمسة عشر يوما . ولم يكن المجد يجذبنى الا لان ذلك يعجبك . وكانت صورتك دائما مرسومة فى قلبى . أما أنت ، فقد تركت صورتى ستة اشهر دون ان تطلبى منها نسخة واحدة .. واذا استمر الحـــال هكذا ، فمعنى هذا أن الحب ســـيكون من جانب واحد ، وهو الدور الذى لا استطيع أن ألعبه بأى حال من الاحوال ..

« آه !.. أيتها القاســـية !.. لماذا جعلتنى آمل فى شعور لم تكونى تبادليننى اياه ؟.. ولكن مثل هذا اللوم غير جديد بى ، فأنا لم اثق قط بالسعادة .. ان الموت يحوم حولى كل يوم .. فهل تستحق الحياة كل هذا الصخب والضجيج ؟!

« وداعا يا جوزيفين .. وامكثى فى باريس ، ولا تكتبى الى .. وكل ما اطلبه منــك أن تحترمى عزلتى على الاقل .. » !

وفى نفس اليوم الذى كتب فيه هذا الخطاب ، كتب الى بارا يقول :

« اننى فى حالة يأس بالغ ، فزوجتى لا تأتى الى هنا . ولا شك أن ثمة عشيقا يحتجزها فى باريس .. »

وكان خطأ نابوليون ، انه استعمل كلمة « عشيق » فى المفرد ، اذ الواقع انه كان هناك غير عشيق واحد .. ولكن

عاشقا بعينه كان يتفوق على العشاق الاخرين ، يدعى : « شارل هيبوليت » !

كان هيبوليت هذا رجل اعمـــال محنك .. وكانت جوزيفين قد اشتركت معه فى صفقات مالية وغرامية ..

وفى ١٤ يونيو ، عاد نابوليون يكتب الى زوجته طالبا الصفح !.. انه يريد ان يهرع بنفسه اليها .. فماذا يهمه من امر جيشه ومهمته الرسمية ؟.. انه يطلب منها أن تتوسط له لدى « بارا » كى يعطيه اذنا بالحضور الى باريس :

« اننى فى حاجة ــ أولا ــ الى ان تصفحى عنى بسبب هذه الخطابات غير المعقولة التي كتبتها اليك .. واذا كنت بصحة جيدة ، فستدركين ان الحب المشـــتعل هو الذى جعلنى اضل الطريق .. اننى فى حاجة الى ان اقتنع تماما بأنك لست في خطر .. ضحي بكل شيء من اجل صحتك وراحتك ايتها الصديقة الطيبة .. انك رقيقة وضعيفة ، ولا يمكنك احتمال هذا السفر الشاق الطويل ..

« أتوسل اليك الا تعرضي حياتك الغالية للخطر .. آه ! اننى ارتعد يا صـــديقتى ولا اجرؤ على النظر الى المستقبل .. انك اذا مت سـأموت بدورى ميتة اليأس والعدم ، فأنا لا اعتقد فى خلود الروح ..!

« ان مورا يحاول اقناعى بأن مرضك بسيط .. ولكنك لا تكتبين الى منذ شهر ، ولذا تجدينني فى اشد حالات القلق . واذا لم تتماثلى للشـــفاء سريعا ، فاحصلى على تصريح كى احضر لاراك ولو ساعة واحدة . ويمكننى ان اكون فى باريس فى خلال خمســـة أيام .. اننى هنـــا ــ بدونك ــ لا يمكن ان اكون مواطنا نافعا . فليحب المجد من يشاء ، وليخدم الوطن من يشاء !.. أما انا ، فروحى

تختنق فى هذا المنفى .. »

وفى اليوم التالى ــ الموافق ١٥ يونيو ــ أرسل اليها نابوليون رسولا خاصا أمره بألا يمكث فى باريس اكثر من أربع ساعات .. وحمل الرسول معه هذا الخطاب :

« أبعث اليك بهذا الرسول الذى لن يبقى فى باريس سوى أربع ساعات .. فاكتبى الى رسالة من عشر صفحات ، فهذا وحده يمكن أن يواسينى ..

« انك مريضة وحامل .. وانت تحبيننى أنا الذى سببت لك الحزن بكلامى . اننى مخطىء فى حقك ، ولا أعرف كيف أكفر عن خطئى .. آه ! .. كم أنا خجول لذلك ! .. اغفرى لى يا صديقتى الطيبة .. لقد اتهمتك بأنك تريدين البقاء فى باريس بينما أنت ترقدين على فراش المرض .. ان الحب وحده هو الذى انتزع منى عقلى ، ولن أستطيع أن الم شتاته مرة أخرى .. والآن ، يكفينى ان اراك وأن اضمك الى صدرى ساعتين ثم نموت معا !..

« لقد كنت دائما سعيدا ، ولم يقاوم القدر ارادتى أبدا .. وهأنذا اليوم اصبح منكوبا فى الشخص الوحيد الذى يهمنى !..

« جوزيفين يا حبيبتى .. كيف استطعت أن تظلى كل هذا الوقت دون أن تكتبى الى .. ان آخر خطاب وصلنى منك مؤرخ فى الثالث من الشهر الجارى . وما أزال احتفظ به فى جيبى على الرغم من أنه أثار أحزانى .. ترى ، هل استمعت الى بعض الأصدقاء الخبثاء الذين يريدون أن تبقى بعيدة عنى ؟.. لقد أصبحت أشك فى كل انسان ، واحقد على كل من يحيطون بك ..

« اننى لا اجرؤ على أن أطلب منك ان تشرعى فى القيام بسفر طويل الا اذا كنت فى حالة تسمح بذلك .. واذا قررت أن تأتى ، فليكن سفرك على مراحل قصيرة .. ولكن اكتبى الى تباعا كل يوم ..

« ان كل أفكارى مركزة فيك ، وأنت ترقدين هكذا على فراش المرض .. اننى بلا شهية للطعام ، ولا أشعر بحاجة الى النوم ، ولم أعد أهتم بالمجد أو الوطن أو الصداقة .. فالحياة بدونك هى العدم تماما .. اننى لا اتمسك بالشرف الا لأنك تتمسكين به ، ولا بالنصر الا لأنه يدخل عليك السرور .. والا لكنت تركت كل شىء وجئت لأرتمى تحت قدميك منذ وقت طويل ..

« وأحيانا أقول لنفسى : انك تزعج نفسك أكثر مما ينبغى .. فلا بد أنها شفيت وتستعد الآن للسفر .. بل ربما تكون قد وصلت الى مدينة ليون !. ولكن ياللخيال الذى لا طائل من ورائه !.. انك لا شك راقدة فى سريرك تتألمين .. وفى وسعى أن أتخيلك بوجهك الرقيق الشاحب، وعينيك الحالمتين اللتين زادهما المرض سحرا وجاذبية

« جوزيفين يا وحيدتى .. متى ستشفين ؟ .. انه اذا لم يكن هناك مناص من أن يصاب أحدنا بالمرض ، فانى أولى بذلك ، لأن فى وسعى أن أتحمل المرض بسهولة أكثر .. ولكن القدر القاسى شاء أن يصيبنى اصابة بالغة فى شخصك ..

« وداعا يا حبيبتى .. واليك قبلة منى على شفتيك ، واخرى على قلبك . ومن يدرى ، فلعلك الآن قد غادرت مدينة ليون قاصدة ايطاليا ، وحينئذ سأسافر الى ميلانو كى أنتظرك هناك .. يا له من حلم رائع جميل ! »

وأخيرا ، قررت جوزيفين أن تذهب اليه ، فغادرت

باريس فى الرابع والعشرين من يونيو بعد أن أدخلها بارا فى العربة بالقوة ، وكان يركب الى جوارها عشيقها « شارل هيبوليت » الذى اخذته معها كى « يواسيها » .. وكانت حالتها أشبه بشخص يساق الى العذاب سوقا !

وتقابل بونابرت وجوزيفين فى مدينة ميلانو .. وكان بونابرت مشغولا للغاية ، فلم يكن يجد الوقت لكى ينفرد بزوجته الا أثناء استراحة بين معركتين ، أو خلال فترة من الفترات التى كان يتركها فيها شارل هيبوليت

وخلال الأسبوعين الأخيرين من شـــــهر يوليو ، كاد نابوليون أن يكتشف أمر شارل هذا .. فقد كان هـــذا الشاب جريئا اكثر من اللازم ،وكانت جوزيفين قد اوصت زوجها به فى حرارة .. ولما استولى عليه القلق ، كتب يقول لها من ميدان القتال :

« يؤكد لى البعض انك تعـرفين هـذا السـيد الذى اوصيتنى بأمره معرفة وثيقة ، ومنذ زمن طويل .. وان صح ذلك ، فانك تكونين وحشا ضاريا يا جوزيفين .. »

ولكن جوزيفين طمأنت زوجها ، فتلاشت ظنونه فى الحال .. واستمر العاشقان يمارسان حبهما من وراء ظهر الثائر !!! ...

أما الخطابات ، التى كتبها نابوليون الى زوجته ـ أثناء تنقلاته ـ فى الفترة ما بين عام ١٧٩٦ ، ١٧٩٧ ، فكلها تنم عن نفس هـــذه العاطفة الحسية الملتهبة .. وكان الذين يترددون على صالون مدام بونابرت فى ايطاليا يلاحظون ـ فى وضوح ـ مدى اندفاع بونابرت فى تيار هذه العاطفة ، فقد كان القائد لا يجد أى حرج فى احتضان زوجته أمام الناس ، أو وضع يده على صدرها ..

وكانت جوزيفين تعلن للجميع أنها تتعذب فى ايطاليا عذاب الشهداء ، وتتحرق شوقا للرجوع الى باريس ، ولأصدقائها فى لوكسمبورج .. فهى لم تكن تكترث لمجد زوجها ، فى قليل أو كثير ، وانما كان كل اهتمامها موجها الى عشيقها هيبوليت ، برغم ما نالته من ثراء أغدقه عليها زوجها .. فقد حصلت على عشر نصيب القواد من الغنائم على الأقل

وقصارى القول ، ان عاطفة بونابرت كانت اشبه بآلة موسيقية يعزف عليها وحده .. ومن المؤسف انه كان مخدوعا بهذه الموسيقى !!

وفى ربيع عام ١٧٩٨ ، كف نابوليون عن العزف .. فقد عاد وحده الى باريس مارا بمدينة راستادت حيث كانت تقيم جوزيفين فى البيت الذى اعده لهما هناك ..

ولما لم يجدها ، عاد الى باريس وظل بها شهرا ينتظر وصول زوجته التى كانت مستغرقة فى اللهو مع حبيبها هيبوليت ..

ووصلت جوزيفين آخر الأمر .. فما الذى حدث بينهما ؟

لقد انتشرت الشائعات حول الزوجين .. وكانت جوزيفين حينذاك قد بلغت الأربعين من عمرها ، بينما كان بونابرت لا يزال فى الثامنة والعشرين . وربما كان نابوليون يشك فى أمر هذه الشائعات التى كانت تدور حول زوجته .. ولكن الشىء المؤكد أن الشقاق والشجار كانا قد دبا فى حياتهما الزوجية . وقد حدث بينهما شجار عنيف ذات مرة فى منزلهما بشارع شانترين ، حين وجد نابوليون « فاتورة » بثلاثين مليونا من الفرنكات

يجب تسديدها فى الحال .. فقد كانت جوزيفين مسرفة الى أقصى حدود الاسراف ..

أما أعنف شجار بينهما فقد وقع فى شهر مارس من عام ١٧٩٨ ، فقد علم بونابرت ـ عن طريق أخيه جوزيف ـ بأن جوزيفين تذهب كل يوم لزيارة شارل هيبوليت فى منزل بضاحية سانت أونريه .. وقالت له جوزيفين خـــلال المناقشة الحادة التى دارت بينهما : « اذا كنت تريد الطلاق فلم لا تتكلم ؟ ». وأخبرته أيضا بأنه ليس فى حاجة الى استخدام كل هذه الوسائل فى التحقيق والرقابة ، وبأنها « أسوأ النساء حظا وأكثرهن شقاء » !

وكتبت تحدث عشيقها بعد ذلك عن زوجها وأخيه .. قالت :

« نعم يا حبيبى شـــارل .. اننى أحقد عليهما كل الحقد . وأنت وحدك من أهبه حبى وحنانى .. ولا شك أنهما يلمسان كيف أمقتهما بسبب الحالة الرهيبة التى يضعاننى فيها منذ عدة أيام .. انهما مسروران لحرمانى من رؤيتك كثيرا كما أحب ! ..

« هيبوليت يا حبيبى الوحيد .. اننى سأقتل نفسى .. نعم ، فأنا أريد أن أنهى حياة ستكون من الآن شديدة الوطأة على كاهلى ما دمت لا أستطيع أن اكرسها كلهـــا لك ..

« وا أسفاه !.. ما الذى فعلت اذن لهذين الوحشين الضاريين ؟ ولكننى لن أكون قط ضحية لهما مهما فعلا بى .. أن آخر رمق فى حياتى سيكون لك أنت يا حبيبى . اننى سأفعل أى شىء فى الدنيا كى أقابلك اليوم .. وداعا يا شـــارل ، واليـــك أبعث ألف قبـــلة ملتهبـــة مثل حبى »

وفى الأيام التالية ، نجدها تتحدث مع شارل عن « عذابها الدائم » الذى تلاقيه ـ وهى الى جوار زوجها فى شارع شانترين ـ فتكتب الى هيبوليت قائلة :

« أنت وحدك تستطيع أن ترد الى سعادتى .. قل انك تحبنى ولا تحب سواى ، فحينئذ سأكون أسعد امرأة على وجه الأرض » !...

***

وفى شهر مايو ، غادر نابوليون باريس متجها الى قاعدة طولون البحرية ، ومنها ركب البحر متجها الى مصر .. ويبدو أن حلا وسطا قد تم بين الزوجين ، ذلك أن جوزيفين ذهبت لتوديعه حتى الميناء ، ثم عادت من طولون الى مدينة باومبير ، ومنها الى بيتها الصغير فى باريس ..

واقامت جوزيفين بعد ذلك مع شارل هيبوليت فى قصر ريفى صغير اكتسب شهرة تاريخية ، وهو قصر « لامالميزون » !...

وفى مصر ، علم بونابرت بتفاصيل أخرى عن علاقة زوجته بشارل هيبوليت فضرب رأسه بيده عدة مرات وصاح يقول فى غضب جنونى :

« النساء ! .. جوزيفين ! .. جوزيفين : هل تخوننى هكذا وأنا على مسيرة ٢٤٠٠ كيلومتر من فرنسا ؟! .. جوزيفين ! .. النساء ! .. الويل لهن ! اننى سأقضى على هذا الصنف من الرقيعات ! .. أما هى .. فانه الطلاق ! »

وكان أوجين ابن جوزيفين مع بونابرت فى مصر ، فكتب الى والدته بكل ما عرف من أخبار عن غضب القائد لمغامرات زوجته . وكانت جوزيفين تأمل ألا

يرجع نابوليون حيا من أفريقيا . وذات مساء ، انتشرت شائعة فى قصر لوكسمبورج بأن نابوليون قتل فى مصر . وتظاهرت الزوجة بالاغماء ، فأخرج بارا كل الخدم ما عدا الطبيب دوفور . وما ان خلت الغـــرفة ، حتى التفتت جوزيفين تسأل « بارا » وهى تبتسم :

ـ هل أنت واثق تماما من أنهم اغتالوه هناك ؟!

فأجابها بارا قائلا :

ـ اعتقد ذلك .. ان من بعث الى بالخبر ليست لـــه اى مصلحة فى الكذب فقالت ، وقد أشرق وجهها :

ـ آه !.. انى أتنفس الصعداء يا صديقى !.. ان هذا الرجل لم يكن يحب الا نفسه .. انه أكثر أهل الأرض قسوة وشراسة وأنانية ، ولم يعرف قط غـير مصلحته وطموحه !

واستمرت جوزيفين تتحدث عن ذلك بضع دقائق ، ثم عادت تكرر سؤالها من جديد قائلة :

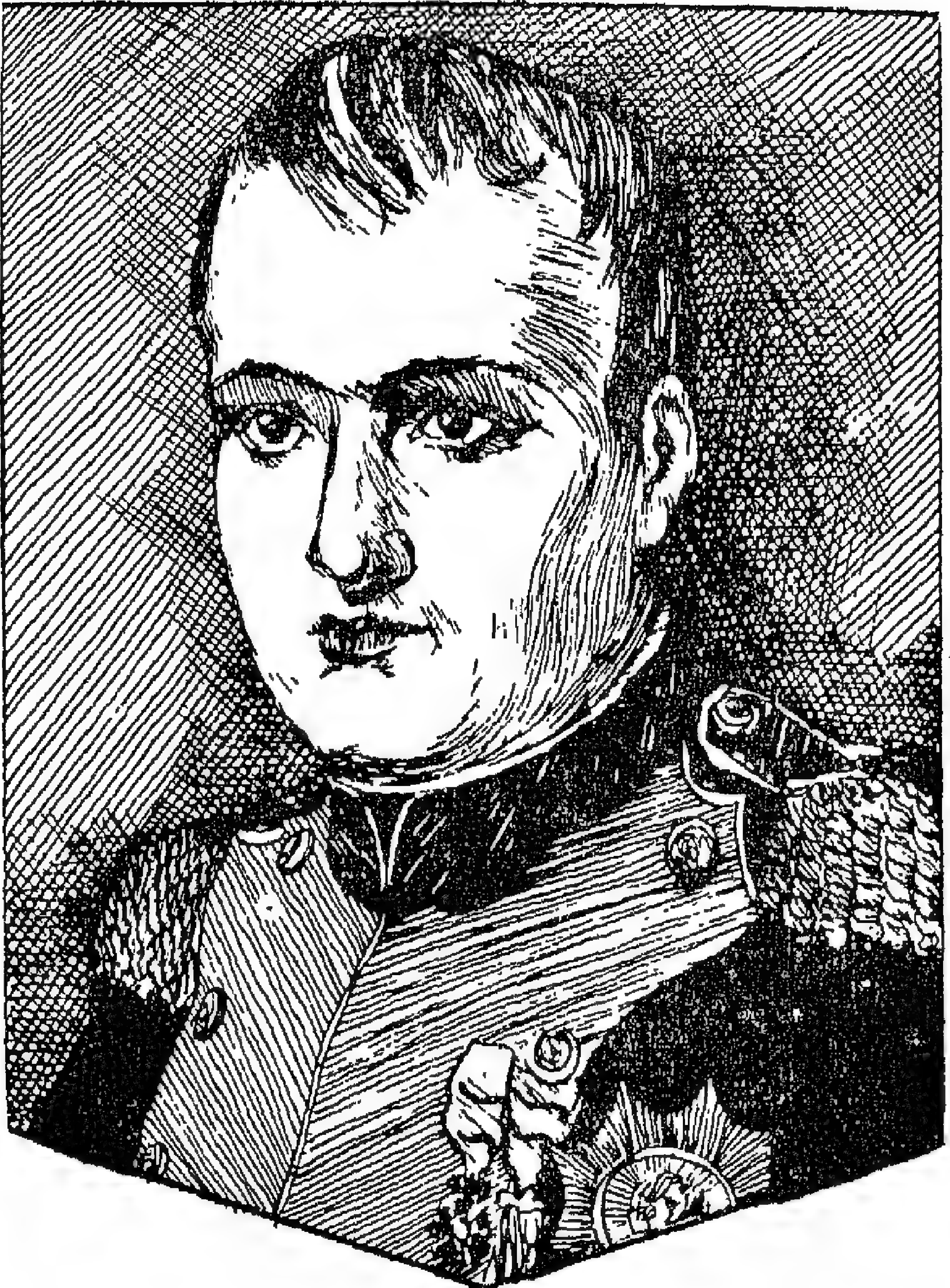
ـ آه ! .. أحقا انه مات ؟

فقال بارا :

ـ اعتقد ذلك ..

ـ حسنا !.. ها قد نقص عدد الأشرار فى العـــالم واحدا ! .. انك لا تستطيع أن تتصور مدى فظاعة هذا الرجل الذى لم يكن يحلم الا بالقسوة ! .. لقد كان دائما يدبر المكائد والمقالب للآخرين .. وكان لا يهدأ له بال حتى يرى الجميع يتعذبون من حوله !

ولكن بونابرت لم يكن قد مات .. لقد كان فقط يريد أن يصرف عن نفسه غضب الناس ونظرتهم اليه كزوج سخرت منه زوجته !



غرام نابليون
أثناء زواجه بجوزيفين

مغامرة فى القاهرة

اصطحب نابوليون فى حملته على مصر فرقة من علماء التاريخ والرياضة والآثار والطبيعة ، ولفيفا من الادباء والصحفيين .. وكان غرضه من ذلك أن يضفى على الحملة عظمة وبريقا غير عاديين ، لينافس بها ركب شوازى جوفييه الذى أرسل ليكون سفيرا لفرنسا فى روسيا . وكان من بين من اصطحبهم ايضا قائد مغامر عملاق يدعى اسكندر دارجيفال ، عرفه نابوليون أثناء الدراسة فى كلية برييه العسكرية ..

كان دارجيفال هذا يعمل فيما مضى ضابطا فى حرس الملك لويس السادس عشر الخاص ، وكان الناس يلقبونه « بالرجل ذى القامة الطويلة » .. وكان قد خاض غمار بعض المغامرات فى بولندا قبل الثورة الفرنسية . وكان غرض هذا الرجل من الرحيل الى القاهرة أن ينفذ مشروعا كان يحلم به ، عبارة عن علبة ليل ، ونادٍ خاص للتعارف ..

وأبحرت مع الحملة ايضا مجموعة من الفتيات الجميلات اللاتى كن ينتظرن الربح من ورائها ، شأنهن فى ذلك شأن دارجيفال .. وكذلك كانت هناك بعض فتيات من نوع آخر لا ينظرن الى الربح ، وانما كن يتبعن أزواجهن

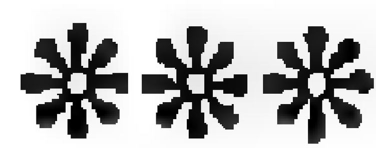
او عشاقهن ، وتنكرن من أجل ذلك فى أزياء الرجال . ومن بين هؤلاء الأخيرات ، نجد فى القـــاهرة ـ فى عام ١٧٩٨ ـ فتاة رائعة الجمال من مواليد مدينة كاركاسون اتخذت لنفسها اسما مستعارا هو بيليلوت ..

كانت بيليلوت على قسط وافر من الرقة والجاذبية .. وكان الجميع يرمقونها فى اعجاب كبير بسبب عينيهـــا الزرقاوين الواسعتين ، وحاجبيها السوداوين ، وشعـــرها الاشقر الطويل الذى كان يكاد يغطى كل جسمها

وكانت بيليلوت فتاة عاطفية محبة للهوى والغرام ، من ذلك النوع الذى يحبه بونابرت بصفة خاصة ، والذى كان يتصل به بفضل واحد من رجاله المخلصين ، هـــو الوزير سان جان دانجيلى ، أكبر رجل محنك فى هـــذه الأمور فى عهد الامبراطورية الأولى . وقبل حملة بونابرت على مصر ، كانت بيليلوت تعمل صانعة للقبعـــات بمتجر مدام فوريس فى مدينة كاركاسون ، وكان اسمها الأصلى : « مارجريت بولين » . وفى ذلك الوقت ، كان الكثيرون يطلبون يدها .. ولكنها رفضتهم جميعا ، فى انتظار فارس الأحلام . وفجأة ، ظهر أمامها هذا الفارس فى شخص جون نويل فوريس ، الضابط بفرقة فرسان الحـــرس ، وكان يمت بصلة القرابة لمدام فوريس ، التى كانت بيليلوت تعمل عندها . ولم يكن جون فوريس هذا شابا وسيما ، ولكن فتنها فيه زيه العسكرى الأنيق ، فلم تســـتطع أن تتردد فى قبوله زوجا لها ..

وعقد زواجهما على عجل ، وعـــرفت بيليلوت على يدى زوجها ملذات الحب ، واكتشفت فى نفسها مواهب عديدة فى هذا المضمار .. وكانا كزوجين شابين لا يفكران الا فى الاستمتاع بأكبر قدر من اللذة .. ولكن ساعة الفراق

دقت بأسرع مما كانا يتخيلان . ووقع الاختيار على الملازم الثانى جون نويل فوريس للسفر مع كتيبته فى حملة نابوليون على مصر . ولما حان موعد السفر ، انهارت اعصاب الزوجة الصغيرة ولم تقو على فراق زوجهـا ، فصممت على أن تصحبه الى كل مكان يذهب اليه . وفى ميناء مارسيليا ــ وبفضل تواطؤ الزملاء ــ تنكرت بيليلوت فى زى ضابط بفرقة الفرسان ، وأبحرت مع زوجها سرا على ظهر ناقلة الجنود لاوسيت . وانضمت ناقلة الجنود هذه الى بقية قطع الاسطول التى كانت تنتظر فى قاعدة طولون ، ثم عبرت الحملة البحر .. وأخيرا ، وضعت بيليلوت قدمها على أرض مصر ..



وفى مصر بدأت الصدمة .. فقد أصيبت بيليلوت بخيبة امل كبيرة ــ مثلها فى ذلك مثل جميع الضباط والجنود الذين كان نابوليون قد وعدهم بالثراء العاجل السهل ــ اذ لم يظفروا بغنائم مثل التى ظفروا بها فى ايطاليا ، فضلا عن أن الجو فيها كان صعبا للغاية .. ولكن بيليلوت كانت لا تزال تعتبر نفسها سعيدة الحظ لأنها لم تفارق زوجها ..

ولما اكتشف امرها ، لم يكن فى الوسـع القاء الزوجة الشابة فى عرض البحر أو اعادتها الى فرنسا ، ومن ثم فقد اضطروا الى قبول وجودها فى القاهرة ، وسرعان ما أصبح الجيش كله يعرف قصتها .. ومن هنا ، كانت بداية الخطر الذى هدد سعادة هذين الزوجين !..

كان عدد النساء الأوروبيات فى القاهرة قليلا جـدا ، فاضطر الضباط والجنود الى قبول نساء من رقيـق المماليك ، وكانوا قد خلفوا وراءهم بعـد هزيمتهم أقبح

من كان لديهم من نساء فى الحريم . وما ان وقعت الابصار على بيليلوت الصغيرة الشقراء حتى طمع فيهـــا الجميع .. فقد كانت بقامتها الجميلة ، وأســـنانها اللؤلؤية ، وبشرتها النادرة ، موضع اغراء كبير بالنسـبة للجميع ..

ولكن اذا كان الجميع يمنون النفس بالحصول على بيليلوت لأنفسهم ، فقد كان هناك رجل آخر يتفحصها من أجل أغراض أخرى .. ولم يكن هـــذا الرجل غير اسكندر دارجيفـــال مؤسس « ملهى تيفولى » بالقاهرة . وكان دارجيفال يريد لمشروعه أن يبدأ بداية طنـــانة .. ولذا كان يلزمه عرض أشياء أخرى غير موائد القمـــار والأطعمة الفاخرة ، كى يجذب اليه ذوى الرتب الكبيرة والمرتبات الضخمة فى الجيش . ولم تكن هـــذه الاشياء الأخرى ــ بالطبع ــ غير عدد من النساء الجميلات يزين به صالوناته وحديقته الخاصة ..

واستطاع دارجيفال أخيرا ان يتصيد امرأة يونانية تدعى هيلين ، كانت فيما مضى تابعة لحريم أحـــــد البكوات المماليك .. وكان مركز هذه المرأة الممتاز يتيح لهـــا أن تتصيد بدورها فتيات أخريات يستمتعن بقدر معقول من الجمال ، ولكن أهم ما فعلته ، هو انها استطاعت أن تحصل لدارجيفال على وعد من زوج بيليلوت بأن تكون زوجته ضيفة شرف فى ليلة افتتاح ملهى تيفولى ، وذلك مع بقية النساء الجميلات اللاتى جمعهن دارجيفال خصيصا لهذه المناسبة

أذن فقد وافقت المواطنة اللطيفة ــ زوجة الملازم فوريس ــ على قبول هذه الدعوة على أمل أن تعود عليها بشىء من الشـــهرة والظهور .. لقد قبلتها على الفور دون تبصر

أخلاقى من جانبها .. ولكننا نضيف ، انصافا للحقيقة ، انها كانت تجهل الهدف الذى كان يرمى اليه دارجيفال من وراء الاعيبه القذرة . ولم يكن هذا الهدف يخاف على ذوى الخبرة والتجربة من رجال الجيش ، فقد كان « الرجل ذو القامة الطويلة » يريد أن يكسب لنفسه اكبر قدر ممكن من عطف بونابرت ورجال قيادته العليا ، بأن يمدهم بمواطنات اباحيات .. وكان الحرمان الذى يعيش فيه هؤلاء ، يمثل بالنسبة لذلك الرجل فرصته الذهبية الكبرى !

وكان تقديره للمسألة صحيحا .. اذ سرعان ما زاد عدد عملائه .. وربح دارجيفال مالا كثيرا على الرغم من المحاولات الكثيرة لمقاومة جشعه

وفى الليلة الأولى من ديسمبر عام ١٧٩٨ ، تألقت بيليلوت بين نجوم ملهى تيفولى . ودفع بها دارجيفال أمام نابوليون الذى أعجب بجمالها فأخذ يوجه اليها نظرات ذات مغزى . وابتعد عنها بونابرت بعد ان أسمعها بعض عبارات الاطراء ، ثم عاد اليها من جديد وبدأ يغازلها صراحة .. وأتاح لهما دارجيفال أن يتنزها معا فى احد الممرات المظلمة فى حديقة ملهى تيفولى ، ومنع الدخول الى هذا الممر باستثناء جونو ضابط أركان حرب نابليون المفضل ..

ولما عاد كل من نابوليون وبيليلوت للانضمام للحفل ، لم تعد الزوجة تحب زوجها كثيرا مثلما كانت تفعل من قبل ، واعتبرت نفسها — منذ هذه اللحظة — ملكا للقائد العام ! ..

وأراد نابوليون ان تكون بيليلوت — منذ ذلك الحين — له فحسب ، فأصدر أمره لاركان حربه برتييه بابعاد

الزوج . وكان لا بد من أن يختفى فوريس من مصر ، فأعدوا سفينة مسلحة صغيرة تحمل « رسالة » هامة يجب تسليمها لحكومة الادارة فى باريس ، وصدر الامر للملازم فوريس بالابحار على سطح هذه الباخرة ، وكانوا يقدرون انها ستقع فى أيدى الانجليز لا محالة ، فينتهى الامر بأسر قبطانها أو اغراقه فى البحر ، وهكذا لايظهر الملازم فوريس فى القاهرة بعد ذلك قط ..

وقبل فوريس القيام بهذه المهمة بشرط أن تصحبه زوجته ، فكل منهما يحب الآخر .. واذا كان هناك خطر ما ، فانهما سيواجهانه معا أو يموتان معا . وصاح برتييه محتجا بأنه لايمكن اصطحاب سيدة فى مهمة خطيرة كهذه ، فتردد فوريس ثم أعلن انه لايريد الذهاب . وحاول أن يستدر عطف رئيس هيئة اركان الحرب ، ولكن برتييه أصر على امره بالذهاب . ان الاوامر هى الاوامر .. وبما أن فوريس جندى ، فليس عليه سوى الطاعة . ولكن متى يرحل ؟ على الفور .. ان بونابرت يريد أن تتم المهمة فى أسرع وقت ممكن ! !

ولقد كان بونابرت متلهفا لدرجة أنه وجه دعوة للعشاء الى المواطنة بيليلوت فوريس وبعض الاشخاص الاخرين فى نفس المساء الذى كان سيرحل فيه زوجها . وعلى المائدة، أقدم نابوليون على حركة مكشوفة ، اذ قلب دورقا صغيرا مملوءا بالماء على ثوب جارته ، ثم نهض واصطحبها معه الى الغرفة المجاورة لتجفيف هذا الثوب وتنظيفه ..

ولما عاد نابوليون ــ ومعه بيليلوت بعد فترة من الوقت ــ ضج الحاضرون بالضحك والتصفيق .. فقد كان وجهاهما مضرجين بالحمرة ، وكان شعر هذه الحسناء الصغيرة فى حالة « فوضى » جميلة .. لقد كان الامر من

الوضوح بحيث فهم كل واحد ماحدث .. وهنأ الحاضرون العاشقين!

***

وفى اليوم التالى ، أمر نابوليون بتأثيث بيت فاخر بالقرب من قصره لتسكن فيه « فريسته » الجميلة ... وسار قدما فى مغامرته دون ان يخطر بباله حدوث اى عائق .. أفليس هو السيد ؟ .. اليست بيليلوت - التى لقبها ببولين - ستكون خاضعة على الاقل للحجاب فى الحريم ؟

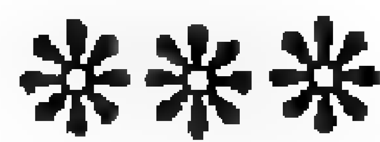
ولم تعد بولين تتنزه الا مع نابوليون فى عربته .. فبهذه الوسيلة العلنية ، لن يجرؤ احد على اختطافها منه أو حتى ان يقف فى طريق هذه العلاقة . ومع ذلك ، كان هناك شخص واحد يجرؤ على أن يفعل ذلك .. انه الزوج .. !

والذى حدث ، أن فوريس لم يمت ولم تغرق سفينته، وانما أسره الانجليز ... وكان هذا متوقعا وطبيعيا ، فقد كان الانجليز يرصدون تحركات الفرنسيين فى مصر ... انهم لم يكونوا يجهلون شيئا عن حياة رجال القيادة العامة الفرنسية فى القاهرة ، وعن حياة القائد العام بالذات .. ولو فرضنا أنهم كانوا يجهلون ذلك ، فان استجواب فوريس وخدمه كان كفيلا بأن يطلعهم على كل شىء .. وقصارى القول انهم وجدوا إمامهم رجلا كاد يذهب ضحية لفجور قائده .. فماذا سيفعلون به ؟.. ان من الممكن نفيه الى احدى الجزر .. ولكن فوريس فى حد ذاته لاقيمة له بالنسبة لهم .. أفليس من الافضل اذن اصابة بونابرت نفسه فى الصميم ؟.. فماذا لو أعادوا الى مصر زوج عشيقته ؟ الا يكون هذا خير حل للموقف ؟!

وهكذا اتجهت الى مصر سفينة بريطانية تحمل على ظهرها الملازم جون نويل فوريس .. وانزل الضابط في مصر ، وحاول الفرنسيون حجزه في الاسكندرية دون جدوى ، فقد كان يريد ان يصل الى القاهرة ـ في أسرع وقت ممكن ـ ليرى زوجته

ولكن فوريس واجه أسوأ موقف صادفه في حياته .. انه ثار بالطبع ، ولكن ماالفائدة ؟.. لقد ثار نابوليون أكثر منه .. فمن يخدم العلم لا يتشاجر مع قائده من أجل زوجته ! ولما كان بونابرت هو الاقوى ، فقد اضطر فوريس أن يحنى رأسه . ولم يكتف نابوليون بذلك ،وانما أمر بأن تطلق بولين من زوجها ، كى يطمئن الى ان هذا الملازم لن يأخذ منه عشيقته !

اذن فقد انتهى الامر بهزيمة فوريس .. وها هو ذا بونابرت يعود الى التنزه مع بولين تحت سمع فوريس وبصره .. وأطلق الجيش على بولين لقب « كليوباترا القائد العام » !



وعاشت بولين عيشة الامراء .. وبلغت الجرأة ببونابرت أن عين أوجين ـ ابن زوجته جوزيفين ـ فارسا مرافقا له في ركب عشيقته ، وكان أوجين ضابطا فىالحملة . واعتبر أوجين علاقة والدته بنابوليون في حكم المنتهية ، ولا سيما أنه كان قد سمع من بونابرت هذا التصريح المنيف : « اننى أريد الطلاق من جوزيفين ..وسوف أكتب توا الى شقيقى جوزيف لاتخاذ اللازم نحو اجراء طلاق عليني » .. وكان بونابرت يعتزم الطلاق حقا لدرجة أنه وعدبولين بأن يتزوجها اذا حملت منه .. !

ولكن جهود فتى كورسيكا وفتاة بلدة كاركاسون لم

تكلل ــ للاسف ــ بالنجاح . وكثيرا ماكانت بولين تحتــج قائلة : « انه ليس عيبى على اية حال » . ومنذ ذلك الحين ــ وهذا أمر بالغ الاهمية ــ بدأ يتكون فى نفس نابوليون اعتقاد بأنه عاجز عن انجاب ذرية

***

قطعت حملة سوريا هذه القصة الغرامية العجيبة ... ففى اليوم العاشر من فبراير عام ١٧٩٩ ، غادر نابوليــون القاهرة بعد حب دام أكثر من شهرين . ولم يعـــد الى عشيقته الا فى الرابع عشر من شهر يونيو . وبعد غرام دام مدة شهرين آخرين ، غادر نابوليون مصر الى الابد تاركا جيشه وبولين

والواقع أنه كان معذورا فى عدم اصطحابه لبولين ، فقد كانت رحلته محفوفة بالمخاطر .. اذ كان من الممكن أن تقع سفينته الحربية فى أيدى الانجليز . فياللفضــيحة التى كانت ستحدث حينذاك فيما لو أسر القائد الفرنسى العــام ومعه عشيقته التى اختطفهـــا عنوة من ضابط شاب فى الجيش الفرنسى !

واجتهد كليبر خليفة بونابرت فى تهــــدئة حزن بولين وغضبها .. ولما أصرت على أن تلحق بعشيقها فى فرنسا ، حقق لها رغبتها .. بل ويبدو أنه نصحها بالســـفر الى هناك . وكتب كليبر الى الجنرال مينوكى يسهل مســألة ابحارها قائلا : « ان المواطنة فوريس هى التى تحمل هذا الخطاب اليكم ياسيدى الجنرال .. انها تريد العودة الى فرنسا لتلحق بالبطل الذى فقدته . وهى تتوقع من كرمكم وعطفكم أن يتاح لها السفر فى أسرع وقت ممكن ، ومــع صحبة طيبة .. وهى لاشك تعرف كيف ترجوكم فى هذا أحسن منى »

ولم يرفض مينو تحقيق رغبتها .. ولكنه كان حذرا، اذ أجاب على كليبر قائلا : « لقد حضرت عندى هذه السيدة الجميلة ياسيادة القائد العزيز . ولكننى لم أرها .. وسوف أؤدى لها ـ بغير أن أراها ـ كل ماأستطيع بذله لها من خدمات ، مادام زوجها لن يتدخل فى شىء . وقد جربت منذ زمن طويل أن تدخل المرء فى مثل هذه الامور لايعود عليه بأى خير .. وكن على ثقة من أنه(١) يتحدث عنها فى فرنسا . وهذا الرجل له أعداء كثيرون ، ولابد أن أحدهم سيخطب لمدة ساعتين على الاقل فى الجمعية التشريعية بخصوص هذه المغامرة الغرامية . ومن هنا يمكن أن تدرك كل مايمكن أن يقال هناك فى مثل هذا الموضوع ! وأتوقع أننا لابد أن نواجه ـ نحن المساكين ـ مأزقا شديدا ، اذا ماتدخلنا فى معركة كهذه »

ومع ذلك ، عين مينو أركان حرب نابليون المخلص جونو ليرافق بولين فى رحلتها الى فرنسا . وفى الطريق ، احتجز الانجليز جونو ، وأذنوا لبولين باستئناف الرحلة..

وفى باريس ، كانت تنتظرها صدمة قاسية .. فقد تصالح نابوليون مع زوجته لانها كانت بالنسبة له تمثل « سندا » فى هذا الوقت الذى بدأ يصل فيه الى السلطة، ومن ثم فقد رفض مقابلة بولين ..

وكانت أحداث انقلاب ١٩ نوفمبر ١٧٩٩ لاتزال قريبة العهد . وكان نابوليون حينئذ يرتب أمر « الحكومة القنصلية » ، ويجرد القنصلين الاخرين اللذين يحكمان معه من اختصاصاتهما ، ويدرب من سيحل محلهما . لقد كان منهمكا تماما فى أمور السياسة والادارة والمال ؛

---

(١) يعنى نابوليون

وأيضا فى الاشراف على الجيش الذى كان يجهزه لمعركة مارنجو المقبلة .. ولان مركزه لم يكن مضمونا ، فانه لم يشأ أن يزعزعه بالعودة الى علاقة نسائية قد تثير عليه عداء الرأى العام .. ولذا أبعد بولين عن حياته بغير رقة أو شفقة !

ولكنها كانت من المكر بحيث حاولت أن تنتقم منه بالذهاب الى نفس المسارح التى يتردد عليها .. ولم يدم هذا طويلا ، اذ سرعان ماصدر الامر بنفيها من باريس .. ولكنها لم تأبه لذلك ..

وبعد نفيها من باريس ، ظهر فى المدينة رجل لم يكن مرغوبا فيه على الاطلاق ، ذلك هو زوجها السابق نويل فوريس . فقد كان متمسكا بالمرأة التى اختطفها منه نابوليون .. أما من ناحيتها ، فانها لم تجرؤ بالطبع على العودة الى حياة سوف تجعلها ذكرى الخطيئة كابوسا مرهقا . ولكن فوريس صمد وقام بدعاية كبيرة حول مصيبته ، وكان يقص على كل من يصادفه كيف القى به بونابرت بين براثن الموت فى أيدى الانجليز . وكان الناس يتحدثون عن هذه الفضيحة فى المقاهى .. ولم تلبث الصحافة أن تناولت مغامرة القائد فى جرأة واسهاب !

وغضب القنصل بونابرت ، وامر فوشيه وزيرالشرطة بأن يبذل كل جهد ممكن لتكميم أفواه الصحف .. إنه لايريد أن يستعيد فوريس هذه المرأة . ليس هذا فحسب ، وانما يجب القاء القبض على فوريس ، وبالفعل القى القبض على الزوج وحددت اقامته ووضع تحت المراقبة مرات عديدة !

وكرر بونابرت أوامره بأن تنفى بولين الى الريف كى ينساها الناس ، فبعثوا بها لتعيش فى منزل جميل بمدينة

بيل فيل ، وكان هذا من كرم عشيقها السابق . ولكنها لم تكن مدينة له على أية حال بهذا الزوج الجديد الذى تزوجت منه فى اواخر عام ١٨٠١ ، والذى كان يدعى هنرى دى رانشو !



وانقضت عشر سنوات دون أن تستطيع بولين انتتبادل كلمة واحدة مع الرجل الذى كان يعشقها فى القاهرة . وكانت تحاول أن تفاجئه أحيانا بالظهور فى بعض الحفلات التنكرية التى يحضرها ، وكانت تكتب اليه أيضا ، ولكنه كان لايرد عليها أبدا . وذات مرة ، صارحت الماريشال دوروك ـ كاتم اسرار نابوليون ـ بألوان القلق والمتاعب التى تواجهها فى حياتها . وتحدث دوروك عنها مع سيده، وحينئذ منح نابوليون عشيقته السابقة ثمانية عشر مليونا من الفرنكات ، ولكنه لم يأمر بتبليغها بكلمة أو عبارة واحدة . وابتلعت بولين الاهانة والمال ، ولكنها اصبحت منذ ذلك اليوم من ألد أعداء نابوليون بونابرت ..!

وظلت بولين ترتكب الخطيئة التى دربها عليها نابوليون واصبح لها طابور من العشاق المعروفين .. وكانت تنتقيهم جميعا من رجال الجيش . ولم تصبح بولين لامعة فى هذا المضمار فحسب ، وانما حاولت كذلك أن تحوز شهرة فى عالم الادب والرسم . وفضلت أن يناديها الناس باسمها الاصلى الذى لم تكن قد استعملته قط :مارجريت ورسمت لنفسها صورة تمثلها وهى واقفة فى حديقة صغيرة تقطف وردة صغيرة ..

ولم تكتف بولين بذلك ، وانما استقبلت فيما بعد فى صالونها الخاص كل رجال السلك السياسى فى عهد الامبراطورية وأخيرا توفيت فى عام ١٨٦٩ ، أى فى نهاية

وكانت مارجريت تثور كلما ذكر الناس أمامهـا اسم نابوليون بونابرت ، وأحرقت جميع الخطابات التى كان قد أرسلها اليها أثناء اقامتها فى القاهرة



مغنية الاوبرا

كان نابوليون قد بيت النية على الطلاق من جوزيفين بعد عودته من مصر . ولما وصل الى باريس ، عاش بمفرده في بيته الجميل بشارع لافيكتوار .. فقد كان مصرا على ان يلقن الخائنة درسا لا تنساه ..

وزار بارا الجنرال بونابرت في مسكنه ، وأخذ يبرهن له على انه مخطيء في تصرفه ذاك .. اذ ليس من الحكمة ان يطلق الرجل زوجته بعد أن يصل الى مركز كبير . وأوضح له كيف ان الناس سيلومونه ــ ان عاجلا أو آجلا ــ اذا أقدم على ذلك . وليس هذا فحسبه ، بل ان جوزيفين يمكن ان تؤدى له خدمات جليلة نادرة . وقصارى القول ، ان بارا الذى زوج نابوليون من جوزيفين ، هو نفسه الذى أقنعه بألا يطلقها ، وبأن يغض النظر عن اخطائها ..

وكلنا نعرف قصة غفران نابوليون لجوزيفين ، بعد أن مهد أبنها اوجين وابنتها هوزتانس الجو بين الزوجين بطريقة لبقة ماهرة ، وبعد أن توسلا الى بطل كورسيكا كي يغفر لوالدتهما مغامراتها .. ولم يكن بونابرت يطلب أكثر من أن ينهى هذه المشكلة على نحو فلسفى .. ولاشك انه قد حدث بينهما نوع من الاتفاق الودى قبيل انقلاب

بروميير وكانت جوزيفين بالتأكيد هى الجانب المسيطر على الموقف فى هذا الاتفاق المشترك ، والا فكيف نفسر رعب نابوليون من أن تكتشف زوجته أمر خياناته الدائمة، وهى التى خانته قبل أن يخونها ، والتى كان ينبغي عليها ان تلوذ بالخضوع والندم لتكفر عن ذنبها ؟!

نعم .. لقد كان نابوليون يخشى أن تكتشف زوجته أمر عشيقاته ، ولذا كان يجتهد فى أن يخفى عنها مغامراته الجديدة . واثناء عودته من مصر ، قال لتابعه المملوك رستم وهو على ظهر الباخرة : « لا تخش شيئا . . اذسرعان مانصل الى باريس ، ونجد كثيرا من المال والنساء الجميلات » . وفى جزيرة كورسيكا - أثناء فترةالراحة التى قضاها نابوليون هناك - آخذ بعض النسوة الجميلات يدللن رستم ، فقال له نابوليون على مسمع من برنييه : « ما هذا ؟ .. يبدو أنك أكثر مهارة منا ! فقد ظفرت باعجاب نساء قبلنا ، ولم نظفر نحن برضا واحدة منهن حتى الان ! »

وعندما منحت السلطة لنابوليون ، وأصبح رئيس دولة، وغدا المال وفيرا لديه ، كانت أولى مغامراته الهامة مع مغنية للاوبرا تدعى جوزبينا جراسينى . .

كان بونابرت يحب سماع الموسيقى والغناء ، وكان يدعى انه خبير فى هذا الميدان .. الامر الذى لم يكن يروق الفنانين لانهم لم يكونوا على اقتناع بذلك ، وكان من أشهرهم الموسيقار شيروبين ملحن الاوبرا الشهير فى ذلك الوقت ، الذى أثار ثائرة نابوليون لانه لم يظهر نحوه الاحترام الكافى ! .. وعلى أية حال ، فعلاقة نابليون بمغنية الاوبرا جوزبينا جراسينى لم تكن ترتبط بفن الموسيقى ..

كانت جوزبينا هى المغنية الاولى فى مسرح لاسكالا بميلانو . ولما وصل بونابرت الى عاصمة اقليم لومبارديا ـ قبيل معركة مارنجو الشهيرة ـ ذهب الى الاوبرا ليسمعها ، وأمر بأن تقدم اليه بعد الحفل . وكان ما أمر به .. فاصطحبها نابوليون الى غرفة نومه . وفى اليوم التالى ، وجد الجنرال برنييه والسكرتير يوريين المغنية راقدة فى فراش بونابرت !

وصارحت المغنية نابوليون بدهشتها لانه انتظر كل هذه السنين الطويلة ثم ابدى اهتمامه بها .. وأضافت تقول له وهى تبتسم : « انني كنت حينذاك أكثر جمالا ! » .. وكان جمالها قد بدأ فعلا فى الذبول .. !

ولكن هذا لا يهم .. فهى فى نظر نابوليون امرأة جميلة .. فطلب منها أن تنتقل الى باريس لتستقر فيها ، حتى تكون قريبة منه على الدوام

وعاد بونابرت الى باريس .. وتبعته عشيقته الجديدة الى هناك ، واصطحبت معها بعض زملائها وزميلاتها فى الغناء ، ولكن هؤلاء لم يكن مثلها ملزمات بالخضوع لرغباته . بل لقد أجاب واحد من المغنيين ـ يدعى مارشيزى ـ على بونابرت ، حينما طلب منه هذا الاخير أن يغنى له لحنا جميلا ، قائلا : « سيدى الجنرال ! .. اذا كنت تريد لحنا جميلا ، فقم بجولة صغيرة فى الحديقة، وستجد حينئذ ما تطلب ! »

وأصدر نابوليون أوامره بأن يعد لجوزبينا مسكن أنيق فى باريس ، وأن تمنح مرتبا مجزيا . وسرعان ما غمر الذهب ، وحالف النجاح ، هذه المغنية .. وأعطاها الوزراء مكان الصدارة فى صالوناتهم حينما عرفوا أنها محظية بونابرت المفضلة فى ذلك الحين .. فهل كانت

سعيدة بذلك ؟ نعم ٠٠ لعدة اسابيع فقط ٠٠ ثم بدأت الاحزان تجد طريقها الى قلبها .. فنابوليون هذا لايحبها حقا ٠٠ بل انه يخدعها ٠ فهو يأتى فجأة ليراها ، وسرعان ما يتسرب السأم الى نفسه فيغادرها ٠٠ فهى ــ فى نظره ــ ليست سوى امرأة تشبع غرائزه ويدفع لها أجرها على هذه الزيارات المفاجئة التى تتم فى السر !

وثارت جوزبينا على ذلك الوضع ، ووجدت من بين المحيطين بها مواسيا ، هو عازف الكمان الشهير رود ، فأغرمت به الى حد الجنون ، وأخذت تتحدث عنه الى صديقاتها بقولها : « آه ! ٠٠ كم هو رقيق كريم النفس مثل ملاك ! »

وعرفت باريس كلها قصة حب جوزبينا لـ « رود » ، ماعدا بونابرت !

ولما اكتشف نابوليون الامر ذات يوم ، هاجم فوشيه وزير الشرطة ، ولامه لوما عنيفا على جهله بالامور ٠٠ ولكن هذا صرح له بأنه كان يخفى عنه الحقيقة مراعاة لمشاعره .. واستشاط نابوليون غضبا حينما سمع هذا الرد ، ولكنه حاول أن يخفى ثورته بأن أدار ظهره لفوشيه وأخذ يصفر لحنا ايطاليا ٠٠ !

وقرر بونابرت أن ينتقم من هذه المرأة التى جرؤت على خيانته علنا ، فأمر بأن تمنع جوزبينا من الخروج ٠ وعين حارسا عليها ، أحد ضباط أركان حربه ٠٠ ولكن جوزبينا اعترضت على هذه المعاملة ، فما كان من نابوليون الا أن قطع عنها معونته المالية ٠٠ فلا مرتب ، ولا منح ، ولا معاش ٠٠ انه سيعرف كيف يخضعها عن طريق الجوع ، ولذا سنراه يطالب أثناء مناقشة قانون نابوليون المدنى

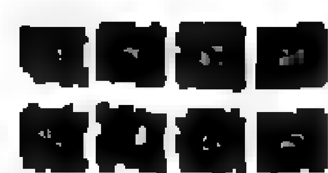
بأن « يخضع الزوج زوجته العاصية بحرمانها من المال الذى تعيش منه »

وعلى أية حال ، فقد اهتدت جوزبينا الى الحل الوحيد الذى يحفظ لها ماء وجهها ‥ فبعد عدة حفلات أقامتها للحصـــول على بعض المال ، غادرت باريس فى صحبة عشيقها الفنان ، دون أن تلين لها قناة أمام رجاء نابوليون لها بالبقاء !

وفيما بعد ، عادت جوزبينا للغناء فى أوبرا باريس ، وقابلت نابوليون حينذاك فى شقته السرية التى كان قد أعدها فى قصر التويلرى كى يستقبل فيها خلسة ، بعـــد ظهر كل يوم « النساء اللاتى يأتين فى زيارات عابرة » ‥

وكانت جوزيفين تبدى غيرتها من أولئك النسوة ، وتراقب نابوليون وتتجسس عليه من مدخل هذه الشقة السرية.

والواقع انه لم يكن هناك مبرر لقلقها ذاك ، فانهن لم يكن يشكلن أى خطر عليها . ومن ناحية أخرى فسوف تبرهن جوزبينا على أنها لم تكن تشعر بالحب أو الاعجاب نحـــو نابوليون ـ ولا حتى بأى احترام لذكرى غرامها ـ اذ منحت نفسها بعد ذلك للرجل الذى هـــزم بونابرت فى معركة واترلو : دوق ويلينجتون !



مفاجأة فى الليل

فى نفس الوقت الذى وقعت فيه معركة مارنجو ، نزل فى ميناء مارسيليا ـ عائدا من مصر ـ أحد زملاء نابوليون الاعزاء منذ بداية حياته العسكرية ، هو أندوش جـــونو الشهير ..

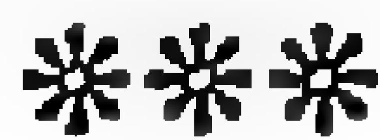
كان جونو جاويشا في قاعدة طولون البحرية عام ١٧٩٩ ثم جعل منه بونابرت جنرالا محليا لاحدى الفرق العسكرية فى عام ١٧٩٩ . وبعد عودة قنصل فرنسا الاول من ايطاليا قام بتثبيت جونو فى هذه الرتبة ونصبه حاكما عسكريا عاما على مدينة باريس ..

ولم يضع الجنرال الشاب وقتا .. وانطلق على الفور يجرى وراء النساء ويشرب الخمر ويلعب القمار ، بل كان لا يتورع عن المشاجرة مع خدم المقاهى ، كعادته أيام أن كان جاويشا فى الجيش !

وتقدم جونو يطلب يد ابنة الارملة برمون ، وكانت هذه السيدة نفسها قد رفضت فى عام ١٧٩٥ أن تتـزوج من بونابرت ، ولكن لم يعد لديها الآن أى سبب لترفض زواج ابنتها من هذا الرجل الذى يضمن لكل من الام والفتـــاة مستقبلا باهرا ..

وفى ٣٠ أكتوبر عام ١٨٠٠ ، تزوج جـــونو من لورا برمون ، وفتح الطريق أمامها لتعيش حياة شبيهة بحياة بطلات ألف ليلة وليلة . وما الغريب فى الامر ما دامت قد اصبحت زوجة لرجل كان حـــاكما عســكريا عاما للعاصمة ، ثم سفيرا ، ثم قائدا ، ثم جنرالا .. حائزا على وسام اللجيون دونير ، ومن كبار ضــباط الامبراطورية ، ويحمل لقب دابرانتيس ..

وكانت لورا رائعة الجمال ، وقد وصفها أحد زمـــلاء زوجها بقوله : « من المستحيل أن نتصور مخلوقة أجمل منها ، أو أكثر رقة وحيوية وجاذبية .. انها كانت ترتدى ثيابا غاية فى الاناقة ، وكانت نضرتها تنســـــجم تماما مع ما وهبته لها الطبيعة من دلال وجاذبية وقوام بديع التكوين »



وانقضى الشتاء ، وتلاه الربيع .. وربما أدركت لورا حينئذ فقط حقيقة زوجها .. وسوف نراها بعد قليل تقبل الامر الواقع ، وتكتفى بخيـــانته مرات قليلة وهو الذى يخونها مرات كثيرة ..

وفى هذا الصيف من عام ١٨٠١ ، تغيبت مدام بونابرت فى رحلة طويلة للاستشفاء فى مدينة بلومبير للميــــاه المعدنية ، وكانت تمنى النفس بأن تجد هناك دواء لعقمها . وأثناء غيابها ، انتقل بونابرت ـ طلبا للتسلية ـ الى قصر ماليزون الصغير ، حيث أحاط به عدد من النساء الجميلات معظمهن من حاشية جوزيفين ، وكانت لورا زوجة جونو من بين أولئك النساء ..

وكان أزواج أولئك النســـوة مشـــغولين فى باريس

بشئون الجيش والادارة • وفى بعض الاحيان ، كانـوا يعطون الاذن بالذهاب الى ماالميزون لرؤية زوجاتهم • وبعد الانتهاء من تناول الطعام هناك ، كان ينبغى على هؤلاء الرجال الذين تعودوا الطاعة والنظـــام أن يعودوا لاداء واجبهم فى العاصمة ••

وفى قصر ماالميزون ، كان نابوليون يبدو فى أقصى حالات مرحه وسروره •• كان يعدو خلف السيدات فى الحديقة أثناء اللعب على « المتوازيين » ، الذى كان يحبه كثيرا •• وبعد تناول العشاء كان يلعب الورق ويجد متعة كبيرة فى أن يغش أوراق اللعب •• وأخيرا يذهب كل الى فراشه ليخلد الى النوم .

وفى فجر ذات يوم ، بينما كانت لورا لا تزال نائمة فى فراشها ، سمعت وقع أقدام فى غرفتها .. ولشد ما كانت دهشتها حينما فتحت عينيها ووجدت نابوليون واقفا الى جوار سريرها !

وانتفضت لورا فى فراشها ، وقد استولى عليها الذهول، ثم أخذت تفرك عينيها وهى تفكر فيما سيكون عليه موقفها .. وحينئذ قطع بونابرت الصمت بقوله :

ـ حسنا يا مدام جونو •• لماذا كل هذه الدهشة •• ؟ اننى أنا بعينى ! ••

ولم تجب لورا ، واكتفت بأن تناولت ســـاعتها التى كانت موضوعة على المنضدة الى جوارها ، ومدت يدها الى بونابرت ••

وصاح القنصل قائلا :

ـ كيف ؟ الا نزال فى الخـــامسة ؟ •• اننى لم أكن

أعتقد ذلك •• حسنا ، هذا أفضل بكثير •• اننا سنتحدث معـــا ••

وعلى الفور ، جذب مقعدا كبيرا جلس عليه بالقرب من السرير ، ثم فك أربطة « دوسيه » كان يمسك به تحت ذراعه ، وكان مكتوبا عليه : « للقنصل الاول وحده ••• سرى للغاية » • وأخذ يوجه كلمة الى لورا من حين الآخر ، ثم يستأنف قراءة « الدوسيه » ••

قال نابوليون مازحا :

ـ نعم •• انني أنا بلحمى ودمي !

ثم اخذ يقلب أوراق الدوسيه فى بطء وهو يتعمد أن يجعلها ترى يديه ، لانهما كانتا جميلتين للغاية •.• وأضاف يقول بعد لحظة : « أعتقد أن يدى نظيفتان تماما »

وظل بونابرت ساعتين جالسا الى جوار لورا •.• وعلى حذ قولها ، اكتفى وهو يغادر الغرفة بأن قرصـــها فى قدمها •.• !

وفى الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى ، زارها نابوليون مرة أخرى •.• وهكذا دواليك !..

وذات ليلة ، وبينما كان نابوليون يدخل غرفة لورا ، وجد زوجها جونو نائما الى جوارها !.. وصاح جونو قائلا فى ذهول :

ـياالهى !.. ماذا تريد أن تفعل عند زوجاتنا فى هذه الساعة ياسيدي القائد ؟!

***

ان لورا هى التى ذكرت بنفسها امر هــذه الزيارات الغريبة . وقد استنتج البعض من ذلك أنها كانت تريد أن تلمح ـ بطريق غير مباشر ـ الى انها عشيقة لنابوليون .

بينما يقرر المهتمون بتبرئة ساحة نابوليون من تهمة اختطاف زوجة أحد أصدقائه المخلصين ، ان لورا كانت تكذب . وعلى أية حال ، فاذا لم تكن هناك علاقة غرامية بين لورا ونابوليون ، فالمرء لايسعه ــ على الاقل ــ الا أن يفكر فى وجود نزوة عاطفية بينهما . ويتضح لنا ذلك من سلوك بونابرت ــ بعدئذ ــ نحو الزوجين .. فالواقع ان أحدا من المقربين اليه لم يحصل على عطايا وهبات مالية اكثر من هذين الزوجين ، اللهم الا فى القليل النادر . لقد حصل جونو وزوجته من نابوليون على قصر جميل ، ومنزل خاص ، وكثير من الحلى والمجوهرات الثمينة . هذا عدا المرتبات الباهظة ، والمنح المالية الضخمة . ولم يكن جونو يتقاضى فى عهد الامبراطورية أقل من خمسة وسبعين مليونا من الفرنكات ، راتبا سنويا رسميا ، وكانت لورا تظهر فى البلاط الامبراطورى وصالونات العاصمة وهى تضع على رأسها تاجا مرصعا قيمته مائة وخمسة وثلاثون مليونا من الفرنكات . وظلت حياة الزوجين تسير على هذا المنوال ، حتى أن جونو خلف وراءه بعد مماته ــ بعد ذلك باثنتى عشر عاما ــ ديونا تقدر بتسعمائة مليون من الفرنكات !

ويرى البعض أن المرء يجب أن يربط بين سخاء نابوليون بالنسبة لهذين الزوجين وصداقته القديمة لـ « جونو » .. وربما كان هذا صحيحا الى حد ما، ولكننا لو تتبعنا قصة نابوليون مع لورا ، لوجدنا ان صلتهما تبدأ فى صيف عام ١٨٠١ كما رأينا .. ومما يلفت النظر ، انه فى الثامن من سبتمبر من نفس العام ، أمر نابوليون بأن يمنح جونو هبة قدرها ثلاثون مليونا من الفرنكات ، وهو مبلغ ضخم بالنسبة لعهد حكومة القنصلية

ولايشك المؤلف فريدريك ماسون ـ وهو الذى يدافع دائما عن نابوليون ويعطف عليه كثيرا ـ فى أن ثمة علاقات خاصة وثيقة لابد كانت تربط بين لورا وبونابرت . ويقول ماسون فى ذلك : « ان الادعاءات ـ مهما بلغت قوتها ـ لايمكن بأى حال أن تكذب الادلة المادية » . والمرء يجد هذه الادلة فى أرشيفات نابوليون الخاصة ، حيث سجلت هبة الثلاثين مليون فرنك هذه فى سجل قنصل فرنسا الاول . وفضلا عن ذلك ، فان جونو الذى كان حينذاك قائد لواء فقط ، رقى بعد عام واحد الى رتبة قائد فرقة، على الرغم من أنه لم يقدم أدلة جديدة يثبت بها كفاءته فى العمل . والواقع أن مثل هذه الترقية السريعة لايبررها فى العادة غير شىء واحد ، وهو اظهار كفاءة نادرة فى ميدان القتال .. وهذا مالم يفعله جونو فى ذلك الوقت ..

اذن ، فليس هناك قط مايدعونا الى الشك فى مغامرة نابوليون مع لورا . وقد نعت نابوليون لورا ـ وهو فى منفاه بسانت هيلانه ـ بأنها « طاعون صغير » ، لانها كانت ترفع الكلفة بينه وبينها تماما ابان عهد الامبراطورية ... والمرء لايسعه الا أن يستنتج انها لابد كانت تعتقد أن من حقها أن تفعل ذلك لوجود علاقة خاصة بينهما



لويز

بعد أن عادت جوزيفين من مدينة بلومبير للمياه المعدنية وجدت نابوليون يحبها ويهيم بها كما كان يفعـــل أيام معارك ايطاليا ، بل أكثر من ذلك . وكتبت لاحـــدى صديقاتها تقول :

« لقد وجدت زوجى العزيز يحبنى ويعاملنى معـــاملة لطيفة اكثر من أى وقت مضى ! »

ولكن لاينبغى أن يغيب عن بالنا أنها كانت تعلم جيدا أن زوجها القنصل كان يفتح هذه الخطابات ويطلع عليها .. ويبدو أن شيئا لم يعكر صفو جوزيفين فى شـــتاء عام ١٨٠١ ، وكذلك لم يحدث ثمة مايثير غضبها فى صيف عام ١٨٠٢ . ولذا فقد سافرت الى بلومبير مرة أخـرى ، وهى مطمئنة كل الاطمئنان الى تعقل القنصل ..!

غير أن جوزيفين لم تلبث أن عادت من هناك ، وقـــد سيطر عليها القلق خشية أن تنجح امرأة أخـرى فى ان تستحوذ على عطف زوجها . ومع ذلك لم تكن جوزيفين تتعذب فى ذلك الوقت مثلما كانت تتعذب فى عام ١٨٩٨ ، فقد كبرت سنها قليلا عن ذى قبل .. وان ثلاثة أعوام

أو أربعة ، خليقة بأن تلعب دورا هاما فى حياة امرأة فى مثل سنها !

وقبل عودة نابوليون من مصر ـ حينما انتشرت شائعة موته ـ كانت جوزيفين قد طلبت من هيبوليت ان يتزوجها، ولكنه رفض طلبها بأدب لا ينقصه الحسم . ولم تكن بالطبع تستطيع ان تعرض مثل هذا العرض على بارا ، فقد كان قلبه مشغولا تماما .. فضلا عن أن جمالها لم يعد كافيا لان يجعلها تستفيد من كرم جنرال آخر ، أو رجل من رجال المال الاثرياء . ومن ناحية أخرى فقد كانت مشغولة بايجاد مركز لابنها وابنتها .. وعلى الرغم من انها لم تكن تعلم المصير الذى ينتظر بونابرت ، الا ان الدلائل كانت تشير الى انه سوف يتغلب ويستأثر بالسلطة ، فلماذا ترفض الصلح معه اذن ؟.. ثم لماذا ترفض أن تشاطره مغانم مركزه الفريد حين يثبت على قمة الدولة ؟

لقد كانت جوزيفين دائما فى حاجة قصوى الى المال .. وهى تستطيع ان تنفق كيفما تشاء اذا ظلت زوجة لبونابرت . وقد انفقت بالفعل ما تعادل قيمته الآن مليارات من الفرنكات .. ان هذه السيدة كان يلزمها ألف زوج من الجوارب ، ومئات من الفساتين ، وعشرات من المعاطف ، واقمشة لاتحصى من الدانتيل والحرير الهندى . اما الحلى والجواهر ، فسوف تحصل منها على كل ماتطمع فيه ، هذا عدا مجوهرات التاج . وكذلك سيحصل اولادها على الثراء الوفير .. واذا حدث وانهار حكم بونابرت ـ وهو امر لم يكن يراودها الشك فيه لانها كانت مع الملكية فى قرارة نفسها ـ فحينئذ تكون قد ضمنت مستقبلها ومستقبل هورتانس واوجين . وفى عام ١٨١٠ ،

لما اضطرت جوزيفين حينئذ الى قبول الطلاق ، لم توافق على ذلك الا بعد مناقشات طويلة مضنية حول تحديد الارقام المالية ، وحول منحها مليار فرنك فى كل عام ، فضلا عن مطالبتها بثلاثة قصور فخمة ، وبحق الاحتفاظ بمجموعة ثيابها ومجوهراتها النادرة ؛ وقد حققت لهـا جميع هذه المطالب ...

والواقع أن جوزيفين كانت تتعلق بمركزها كزوجة لنابوليون اكثر من تعلقها بنابوليون نفسه .. وكان مايهدد حياتها هو عدم انجابها ذرية منه ، ولذا كان احتمال طلاقها قائما على الدوام . ومن هنا كان ارتكازها تارةعلى فوشيه ، وتارة أخرى على تاليران ، وأيضا خوفها من علاقات زوجها النسائية التى تتعدى مجرد النزوة .وكان كل ماتخشاه أن تحمل احداهن ، خاصة وأنها كانت قد نجحت فى اقناع زوجها بأن السبب فى عدم انجابها ذرية يرجع الى عجزه لا عجزها ، بدليل أنها انجبت من قبل .. أنها لاتهتم بأولئك النسوة اللاتى يقمن علاقة مع زوجها دون أن يقطعن صلاتهن بالرجال الاخرين .. اذ فى هذه الحالة لا تستطيع الواحدة منهن أن تدعى أنها حملت من نابوليون ، بل لعلها لا تجرؤ على أن تنسب اليه ذلك أو حتى على اخباره بالامر . أما اذا حدث واستطاعت احدى النساء الذكيات أو الطموحات أن تكرس نفسها له ـ ولو لبضعة أشهر فحسب ـ ففى وسعها أن تربطه اليها لو حملت منه طفلا . وذلك ما كانت جوزيفين مصممة على أن تحول دون وقوعه بأى حال . وهناك شيء اخر .. فلو توصلت احدى النساء الى أن تجعل نابوليون يتعلق بها تعلقا جنسيا لمدة طويلة ، فقد تصبح هذه المرأة منافسة خطيرة لها وحليفا لنابوليون !

لكل ما سبق ، وضعت جوزيفين ايضا سياستهـا الخاصة بها .. فدرجت على ان تشرف على مغامرات زوجها بنفسها ، وأن تحرص على ان تكون هذه المغامرات قصيرة الامد . وبمعنى آخر ، فانها كانت تشجع العلاقات الطارئة كي تبعد عن نفسها خطر العلاقات الاخـرى . ومع ذلك فقد استولى القلق على نفسها حينما علمت ان احدى « المنافسات » قد انتهزت فرصة غيابها فى بلومبير وتسللت الى قصر ماليزون ، ومن هنـا كانت عـودة جوزيفين المفاجئة من هناك .. فمن كانت هذه المنافسة التى خشيت منها جوزيفين على مركزها ومستقبلها ؟

يشرح لنا الكاتب أندريه جافوتى ـ الذى يرجع اليه الفضل فى اكتشاف هذه القصة ـ كيف أن هواة الموسيقى الرفيعة فى باريس قد أحسوا بصدمة قاسية فى اليـوم الخامس والعشرين من يونيو عام ١٨٠٢ . انهـم كانوا قد هيأوا أنفسـهم للاسـتمتاع بالاوبرا الايطالية الجـديدة من تأليف بايزييلو ، وعنوانها « الخيـانة السعيدة » .. وكانت هذه الاوبرا قد لاقت نجاحا كبيرا سابقا فى مدينة ميلانو ، لانها كانت ساخرة ولاذعة للغاية . ولذا كان مجىء فرقة الاوبرا الهزلية لتقديمها فى باريس، يعد فى نظر عشاق الموسيقى حدثا فنيا فريدا . وبالطبع يمكننا أن نتصور مدى دهشتهم وخيبة أملهم ، حينمـا ذهبوا ليلة الافتتاح الى المسرح ، فوجدوا أن هذه الاوبرا قد استبدلت بواحدة اخرى ضعيفة ومعادة ، وان المغنيين والممثلين الممتازين استبدلوا بدورهم ، وحل مكانهم آخرون مجهولون . وهكذا وجد الناس انفسهم ضحية خـدعة سخيفة ، وهم الذين جاءوا يمنون النفس بالاسـتمتاع برواية جيدة . ومما زاد الطين بلة ، انهم لما استفسروا

عن سبب هذا التغيير فى البرامج ، قيل لهم ان القنصل الأول استدعى الى قصر ماليزون احسن المغنيين فى الفرقة ليمثلوا إمامه أوبرا « عرس دوريه » التى كانوا قد حازوا شهرة خاصة فى أدائها . ومن إجل ذلك ، اضطروا الى تاجيل العرض الاول لاوبرا « الخيانة السعيدة » ! وعلى الرغم من أنه كان عذرا قاهرا الا انه لا يمكن أن يستسيغه هذا النوع من عشاق الموسيقى المتشددين

والآن ، من ذا الذى كان يجذب انتباه بونابرت فى فرقة الاوبرا الايطالية هذه ؟ .. لا شك انه كان يحب الموسيقى والاوبرا الايطالية ، ولكن كان لابد من سبب هام يكمن وراء كل هذا الاهتمام ! ..

كان بونابرت يشاهد المسرح الايطالى قبل ذلك بعدة اشهر ، فسمع حينئذ مغنية لم تكن ايطالية الجنسية برغم أنها كانت تغنى فى المسرح الايطالى .. وكان اسم هذه المغنية لويز جوزيفين فيليب رولاندو ، وكان اصدقاؤها الاعزاء يسمونها لويز ..

كانت لويز حينئذ فى الخامسة والثلاثين من عمرها ، اى اكبر من نابوليون بنحو عامين .. ولسنا نجد لوصفها خيرا مما كتبته عنها صحيفة « اوديبا » الفرنسية ، قالت الصحيفة : « انها ليست ايطالية ، ولكن ليس هذا عيبا فى نظر الجمهور الفرنسى .. وهى تبدو من شكلها وطريقة تمثيلها وكانها باريسية . والناس يحبون كثيرا أن يستمعوا اليها وأن يشاهدوها على خشبة المسرح .. فهى تجمع بين الدلال والحساسية المرهفة ، فضلا عن انها تتسم بالرقة والنبل » .

اذن فهاهى ذى لويز التى لم ينسها بونابرت تصل الى قصر ماليزون فى مساء هذا اليوم من شهر يونيو عام

١٨٠٢ . وكانت قد جاءت الى هذا القصر قبل ذلك لتغنى فى أوبرا « السيدة الخادمة » لشيماروزا

ولذلك استبد الخوف بجوزيفين حين علمت ـ أثناء غيابها ـ أن لويز قد عادت من جديد الى قصر ماليزون ، ولم تكد تنقضى على زيارتها الاولى للقصر ستة أسابيع ..

ولما كانت جوزيفين امرأة قوية العزيمة ، فقد شعرت بالخطر الذى يهددها وثارت لتدخل « هذه الايطالية » ، ولا سيما انها كانت تعرف جيدا طبائع زوجها ، ومن هنا كانت عودتها السريعة المفاجئة الى باريس ..

وصبت جوزيفين جام غضبها على رأس بونابرت .. ولكنه راح يؤكد لها إنه لا يعبد أحدا سواها ، وأنه سيصارحها بكل مرة يخونها فيها ، ثم لامها لأنها قطعت هذه الرحلة المفيدة ! .. ولكنها لم تعبأ بما قال واستمرت فى ثورتها حتى تدخلت ابنتها هورتانس وحاولت تهدئتها، فأفلحت .. واظهر نابوليون عرفانه بالجميل لابنة زوجته، فمنحها منزلا خاصا من أجمل منازل العاصمة !! ..

اما لويز ، فقد ضحى بها على الفور .. وشاء القدران تكون نهاية هذه السيدة نهاية سيئة ، فبعد أن كانت قد سافرت الى بلجيكا عام ١٨٠٦ لادارة أحد المسارح بمدينة جان ، اضطرت للعودة الى باريس فى بداية عام ١٨٠٧ كى تستعيد عملها فى مسرح فيدو . وفى بداية شهر مايو من نفس العام ، شبت النار فى ثوبها بينما كانت واقفة امام المدفأة .. وانتهت حياتها والنار فيها .. ولما هرع الناس لنجدتها كانت قد فارقت الحياة !

ورطة !

كانت هناك ممثلة مسرحية تدعى « مارجريت فيمر » ، اشتهرت فى عالم المسرح باسم مدموازيل جورج ٠٠ أما بونابرت ، فكان يدللها باسم جيورجينا

وكانت مدموازيل جورج ذات قوام بـــديع ٠٠ وكان وجهها جميلا جذابا ، ومع ذلك لم يكن أداؤها بارعا على المسرح ٠٠ وكل سمعتها فى هذا الميدان ترتكز على علاقتها ببونابرت ، وهذا ما آثار نحوها فضول كتاب القرن التاسع عشر من أمثال : هيجو ، ودوماس ، وغيرهما ٠٠

ولم تكتف مدموازيل جورج بانها عشيقة القنصل الاول ، وانما استطاع نخبة من اكابر اوروبا ان يفخروا بأنها كانت عشيقة لهم . والواقع ان هذه الممثلة كانت « كريمة » جدا فى هذه الناحية ، ولا سيما وأن هذا الكرم كان يعود عليها بثراء وفير ! ٠٠ وكانت تعمل على ترويج اسطورة حـــول نفسها ، مؤداها أن القنصل الاول كان يمثل بالنسبة لها حبها الاول والوحيد ٠٠ وكان من بين عشاقها المشهورين ـ قبل أن تصل الى نابوليون ـ لوســيان بونابرت ٠ وكان نابوليون يحب كثيرا ان يغيظ اشقاءه فى الامور النسائية ـ وخاصة لوسيان ـ ولم يكن يتورع عن مغازلة الفتيات اللاتى

حصل عليهن عن طريق مورا زوج شقيقته !

كانت باريس كلها تتحدث عن جمال مدموازيل جورج .. ولم تكن هذه الممثلة قد رفضت للوسيان بونابرت أى مطلب .. ولذا كان طبيعيا أن تخضع لرغبة شقيقه الحاكم !

وبدأت مغامرتها مع نابوليون بصورة عادية ، فقد أرسل اليها مبلغا كبيرا من المال قدره تسعمائة ألف فرنك .. وذلك كى يشعرها باهتمامه بها . ولما لم تكن مدموازيل جورج بالمرأة الغبية ، فقد آثرت الا ترد عليه ، وكانت تهدف من وراء ذلك الى أحد امرين ، فاما ان يرسل اليها هدية جديدة ، واما أن يصدر لها أمرا بأن تأتى لتقدم له فروض الطاعة والشكر .. !

وقد صح ما توقعته .. ففى ذات ليلة ، وبعد انتهاء احدى حفلات المسرح ، أتى خادم ليصحبها معه فى عربة الى قصر سان كلو . ويمكننا أن نتصور ما حدث بعد ذلك .. فلم يكن بونابرت بالرجل الذى يضيع وقته فى « المقدمات » مهما كان الموضوع الذى يعالجه . وقد قصت هذه المرأة الجميلة - فيما بعد - كيف أنها جعلت هذا القائد الـذى دوخ الكثيرين يحنى رأسه احتراما لطهرها وعفافها ، وكيف أنه صبر كثيرا من أجل أن تتكرم عليه يوما وتسلم إليـه نفسها . وبالطبع كان كل ذلك محض خيال ! .. انهـا كانت قد قبلت الهدية ، فلم يكن أمامها اذن الا أن تنفذ ما طلب منها ..

***

قاد الخادم الممثلة الى غرفة نوم لها شرفة واسعة ، ثم خاطبها قائلا :

- اننى ذاهب لاخطار القنصل الاول يا سيدتى .

وتطلعت الممثلة حولها فى أرجاء الغرفة الفسيحة ، ووقع

بصرها على سرير ضخم منصوب فى نهايتها .. انها هنا ستسدد دينها لبونابرت . وكانت نوافذ الغرفة وأبوابها مغطاة بستائر كبيرة من الحرير . وهنا وهناك فى كل مكان ، كانت الانوار تنبعث من نجفة كبيرة ومجموعة من الشمعدانات . وقالت الممثلة تحدث نفسها : « يا الهى !.. ان هذه الغرفة مضاءة كما لو كانت ستقام بها حفلة راقصة »

واستولى القلق على نفسها ، فخطر لها أن تجلس على اريكة الى جوار السرير ، وان تغطى وجهها بوشاح فاخر كان قد أهداه لها أحد معارفها . وما كادت تفعل ، حتى دخل بونابرت الغرفة ، واتجه اليها مباشرة ، فأخذها من يدها وأجلسها على أريكة أخرى أكبر حجما .. ثم نزع وشاحها فى غير كلفة والقى به على الارض ..

ودار الحديث بينهما عن المبلغ الذى أرسله اليها ، وعن السبب الذى أخرها عن الحضور لتتقدم له الشكر . وتلعثمت الفتاة الشابة .. ! واستمر فى حديثه فسألها عن اسمها بالكامل . ولم يشأ أن يسميها مارجريت ، وقرر أن يسميها جيورجينا . وبعد ذلك لم يجد كل منهما ما يقوله للآخر .. وبعد فترة صمت طويلة قال :

ــ لماذا لا تتكلمين يا عزيزتى جيورجينا ؟

فشكت من الضوء الذى يتعبها ، وقالت :

ــ أرجو أن تأمر باطفاء الانوار .. فهذا يريحنى كثيرا ويتيح لى أن أستمع اليك وأجيبك ..

ــ كما تريدين يا عزيزتى جيورجينا ..

ودق بونابرت الجرس للخادم ، ولما جاء أمره ــ وهو يشير الى النجفة ــ قائلا :

ـ اطفىء هذا النور ..

والتفت الى جيورجينا وأضاف قائلا :

ـ هل يكفى هذا ؟

فقالت فى تردد :

ـ كلا .. أرجو أيضا أن تأمر باطفاء نصف هذه الشمعدانات .. انها اكثر مما ينبغى

فوافقها نابوليون على الرغم من أنه كان يحب أن يحتفظ بضوء قوى يتيح له أن يكشف أقل عيب فى جسم عشيقته قال :

ـ حسنا جدا ..

وأمر الخادم باطفاء عدد كبير من الشمعدانات ..

والتفت يقول لها بعد أن أصبح الضوء خافتا :

ـ هل ترين الآن جيدا .. ؟

فقالت :

ـ ليس جيدا ، ولكن بما فيه الكفاية ..

ولم يكن الفجور قد قتل بعد الروح الشابة فى نفس هذه الفتاة المدربة فى شئون الهوى والدلال ، فعرفت كيف تستخدم خبرتها هذه مع بونابرت الذى وصل الى المجد فى وقت مبكر ، فلم يتح له أن يمارس لذات الشباب بما فيه الكفاية !

وقد أتيح للمقيمين بقصر سان كلو أن يشاهدوا هذين العشيقين يلعبان معا على السجاد ، ويجرى كل منهما خلف الآخر وكأنهما تلميذآن صغيران !

وغمر نابوليون عشيقته بالحلى والمال والاحجار الكريمة .. وكان كلما افترق عنها لبضعة أيام أو أسابيع يضع لها فى صدرها رزمة من الاوراق المالية .. وقد وصل

مجموع هذه المبالغ الى اثنى عشر مليونا من الفرنكات !

ومع ذلك كان لا يتورع عن أن يجرح شعورها وكثيرا ما كان يقول لها :

ــ ان قدميك غير جميلتين

وكانت من ناحيتها تعرف ذلك ، وهذا هو السبب فى انها لم تنزع جوربها وهي معه ذات مرة ، فقال لهـــا فى سخرية ودون أدنى شفقة : « انك تحاولين اخفاء قدميك لانهما قبيحتان ! »

وذات ليلة وقعت مفاجأة لم تكن فى الحسبان ، فقـــد أصيب نابوليون وهو بين ذراعيها بأزمة عصبية عنيفة .. وجن جنون جيورجينا حينما رأته يفقد الوعى ، فاندفعت خارج الغرفة وهى شبه عارية ، وأخذت تقرع الابـــواب وتشد حبال الاجراس حتى أيقظت جميع من فى القصر . وهرع اليها خادم نابوليون الخاص ، ومن بعده آخرون من بينهم جوزيفين زوجة بونابرت نفسها .. فيا للمنظر الذى شاهدته !

ومن الغريب أن جوزيفين وجيورجينا تعاونتا معا ــ فى جو تسوده المودة بدلا من العداء ــ فى اعادة الوعي اليه .. ولما أفاق ، فتح عينيه وتأمل عشيقته التى كانت تمسك به بين ذراعيها ، ثم ألقى نظرة على زوجته ، وحينئذ عادت اليه ذاكرته على الفور ، وثار ثورة عنيفة كادت أن تعود به الى الحالة التى كان فيهـــا منذ قليل . وارتعدت الممثلة من الخوف ، ولم يكن امامها بعد ذلك الا أن تختفى فى الحال !

وكان ذلك الى حين .. فقد دامت علاقتهما بعد ذلك مدة عامين . ولكنهما لم يكونا مخلصين تماما لبعضهما البعض .. فقد كان لنابوليون عشيقات أخريات . وكانت مدموازيل جورج تذهب اليه كلما عن له أن يطلبها ، ومن ناحية أخرى

كانت مشغولة بدورها مع سادة آخرين .. لقد كان رجال المال والدبلوماسيون يتقاسمون هذه الفتاة التى كان نابوليون يعتقد أنها ملك له وحده ، ولذا كان غضبه شديدا حينما علم أخيرا أنها لا تبخل بنفسها على أحد !

وضاعفت مدموازيل جــورج من مغامراتها لدرجة أن فوشيه وزير الشرطة كان يقدم عنها تقريرا يوميـــا الى بونابرت . ومع ذلك لم يشمئز منها نابوليون الى الدرجة التى تجعله يقطع علاقته بها تماما .. واستمر فى سخائه عليها بالمال . وفى عام ١٨١٣ ، كرس لها من وقته بعض السهرات أثناء حملة المانيا . وبعد عودته من جزيرة البا فى عام ١٨١٥ ، استطاعت أن تحصل منه على مبالغ مالية طائلة .. وهكذا كانت نهاية ذلك الغرام الذى انتهى بالمال كما بدأ من أجل المال !



أنطوانيت

فى الفترة ما بين اعلان الجمهورية ، فى مايو عام ١٨٠٤، والتتويج فى ديسمبر من نفس العام ، لعب عدد من النساء دورا فى حياة نابوليون .. ومن بينهن امرأة جميلة ، تدعى « مارى انطوانيت اليزابيث » ، عرفها أثناء رحلته الى الضفة اليسرى من نهر الراين ..

كانت أنطوانيت ابنة رجل مشهور هو الجنرال لو ميشودازسون ـ احد علماء الجيش الملكى القديم ـ وواحد من ابرز اعضاء مجلس الشيوخ فى عهد حكومة القنصلية ، وكانت متزوجة من ضابط يدعى اوكتاف فودريه .. وقد تم زواجهما فى ١٠ فبراير ١٧٩٠ ، وكانت انطوانيت فى السادسة عشرة من عمرها حينذاك ، بينما كان زوجها فى الخامسة والثلاثين . وفى يوليو من عام ١٧٩١ ، عين اوكتاف ضابط اركان حرب لوالد زوجته ، ولكنه مالبث ان هاجر من فرنسا فى نهاية نفس العام . وكانت انطوانيت تتردد على صالونات قصر اللوكسمبورج أيام بارا ، وايضا على صالون مدام تاليان .. ولذا كانت تعرف جوزيفين منذ ذلك الحين

وبعد انقلاب بروميير ، لجأت انطوانيت الى الجنرال

كيلرمان تطلب منه ان يتوسط لها لدى القنصل الاول من أجل اعادة زوجها الى صفوف الجيش ، ولكن طلبها لم يحقق .. ومن ناحية أخرى كانت هناك نية للطلاق بين الزوجين . وكان والدها قد مات أثناء ذلك .. والذى لا شك فيه ان انطوانيت قد عرفت ضيق ذات اليد فى عهد حكومة القنصلية ، بل ويقرر البعض أنها كانت تعيش فى بؤس كبير ، ومن هنا واتتها فكرة التخلص من شقائها وعوزها عن طريق اغراء بونابرت بجمالها وسحرها .. ودبر لها دوروك كاتم أسرار نابوليون — الذى كانت تعرفه — مقابلة مع سيده ، وكان عليها ان تفعل الباقى ! ..

كانت انطوانيت سيدة مثيرة بارعة الجمال ، وكانت تتمتع بقسط وافر من الجاذبية وخفة الروح .. فلم يكن غريبا اذن ان تنجح مقابلتها مع نابوليون . ولما كاشفته انطوانيت بمسألة ديونها ، امر باعطائها المال لتسديدها على الفور .. وهكذا خرجت السيدة الشابة من ورطتها المالية !

وربما تمت مقابلتهما الثانية بعد الاولى بوقت وجيز .. وعلى اية حال ، فقد انتهت هذه المقابلة ايضا بمناورة مماثلة كللت بالنجاح . وقبل ان تغادر جوزيفين قصر سان كلو للذهاب الى اكس لاشبيل ، عين نابوليون انطوانيت — أو مدام فودريه — وصيفة من وصيفات القصر .. وكان نابوليون حينئذ مع جيشه فى مدينة بولونيا

ودهشت جوزيفين من تعيين أنطوانيت ، ولم تلبث ان وقعت فريسة غيرة شديدة من هذه المراة التى كان المقصود من تعيينها زيادة عدد الحريم فى القصر . ومع ذلك ، حاولت جوزيفين ان تخفى مشاعرها امام هذه

المنافسة الجديدة ، رلل وأخذت اليها بآلامها ومشاكلها

وذات يوم ، دخلت انطوانيت غرفة جوزيفين فوجدتها تبكى فى مرارة . ولشد ما كانت دهشتها حينما أشارت جوزيفين الى لوحة صغيرة تمثل امرأة ترتق قميصا الى جوار زوجها عامل الاحذية ، وقالت :

ـ آه ! يا سيدتى .. ان هذه المرأة أسعد منى بكثير ! ..

ولعل جوزيفين كانت تحاول ـ بهذه الوسيلة ـ اثارة عطف انطوانيت فتثنيها بذلك عن زوجها ..

وفى مدينة مايونسى ، أستمعت أنطوانيت الى نابوليون وهو يتحدث عن السعادة والشقاء ويقول شارحا : «ليس فى هذه الدنيا سعادة او شقاء .. وكل ما هنا لك ان حياة الرجل السعيد تشبه لوحة من الفضة عليها بعض النجوم السوداء ، وحياة الرجل الشقى تشبه لوحة سوداء عليها بعض نجوم من الفضة »

وكانت أنطوانيت لا تشارك نابوليون أحتقاره للشعب حين كان يقول : « ان الشعب كالماء ، فهو يأخذ شكل كل وعاء » . وكانت تقول فيما بعد :

« ان الرجال الذين أدهشوا العالم بعبقريتهم وجرأة أفكارهم يظهرون لنا ـ حين نراهم عن كثب ـ بشكل يختلف عن المظهر الذى يبدون به أمام الملايين العديدة من الناس » . ولاحظت كذلك أن نابوليون لم يكن يحب أن توجه اليه اسئلة من احد .. وعللت ذلك بأنه « كان يحب الا يفاجأ بأى موضوع قبل ان يعد له العدة » . وكتبت تقول أخيرا : « كيف تستطيع النساء أن يحببن غازيا قاسى القلب ؟ » .. ولكنها لم تكتب هذا الكلام الا بعد انتهاء علاقتها بنابوليون بوقت طويل ! ..

وهناك اسطورة حول انطوانيت مؤداها انها كانت تقدم فاتورة لنابوليون بعد كل مرة يمارس معها الغرام . واخيرا مل العشيق هذه المعاملة ، فقال لدوروك : « أننى لست من السذاجة بحيث اشترى بثمن مرتفع ما أجده رخيصا عند الاخريات .. بلغ شكري لمدام فودريه على لطفها معى ، ولا تحدثنى عنها بعد ذلك ابدا »

وهناك رواية مؤداها أن انطوانيت طلبت منه مالا مرة اخرى ، فارسل اليها مندوبا وجدها تعيش فى رغد من العيش وليس فى بؤس وشقاء - كما تدعى - وحينئذ غضب نابوليون وقطع علاقته بها بصفة نهائية . ولكن هذه الرواية الاخيرة تبدو غير صحيحة ، اذ من المعروف أن سخاء نابوليون كان يفوق كل حد . ومن ناحية أخرى كانت انطوانيت تعيش حينئذ فى نفس المنزل الذى كانت تسكنه فى بداية عهد حكومة القنصلية ، وهو المنزل الذى يقع فى شارع تويلرى بين باسى وحى أوتورمتى . وأخيرا فان هذه الروايات لا تضع فى الحسبان ان مدام فودريه كانت وصيفة فى القصر ، فلم يكن من المعقول اذن أن يتم فصلها على هذا النحو !

والذى حدث ان نابوليون وجوزيفين وحاشيتهما عادوا الى قصر سان كلو فى ١٢ نوفمبر ١٨٠٤ . ووفقا لما ذكرته احدى وصيفات القصر ، كانت جوزيفين تشعر بغيرة شديدة من مدام فودريه التى تتمتع بحظوة كبيرة لدى نابوليون . وفجأة تلقت مدام فودريه امرا بأن تقدم استقالتها ، فقدمتها على الفور .. وقد حدث ذلك فى ٢٩ نوفمبر من نفس العام ..

وسارت حياة انطوانيت بعد ذلك على نهج كله بؤس ومغامرات .. وفى عام ١٨١١ ، اضطرت إن تبيع اثاث

منزلها . وفى آخر أيام حياتها كتبت تقول :

« كنت امرأة ثرية ، تذوقت كل ملذات الدنيا ومتاعها .. ثم انتقلت من الثراء الى الفقر ، ومن الفقر الى البؤس والعوز ، ويمكنني الآن ان أقدر ما يشعر به المرء فى كل حالة من هذه الحالات .. فهل يصدقني الناس اذا قلت انني وجدت ـ وأنا اعاني البؤس والعوز ـ ملذات روحية لم أكن اعرفها من قبل ؟ »

ولاشك ان مدام فودريه كانت اكثر عشيقات نابوليون ذكاء وخفة روح ..



فيليبيتيه أخرى

كان دون جوان قصر التويلرى يلقى شباكه على كل امرأة تعجبه ـ مهما كان مركزها ـ وفى الحال . وهكذا كان يتنقل من سيدة القصر الى ممثلة بسيطة ، ومن الممثلة البسيطة الى خادم متواضعة ، واحيانا الى غاسلة للثياب .. !

وكانت جوزيفين غاية فى التسامح بالنسبة لنزوات زوجها ، وخاصة حين يتعلق الامر بفتيات غير خطرات .. بل انها كانت تذهب الى اكثر من ذلك وتشجع بعض نزوات زوجها مع هذا القطاع « الثانوى » من نساء القصر !

ولبت جوزيفين طلب نابوليون بأن يكون عند مدخل جناح الامبراطورة « صالون تشغله فتيات جميلات » . واختارا من بين خادمات القصر عددا من الفتيات لقب « سيدات استقبال » . وكان سرور نابوليون كبيرا بذلك .. وكان سرور زوجته اعظم منه .. وهكذا أصبحت جوزيفين كاتمة أسرار لغراميات زوجها .. والتقى نابوليون بكثير من الفتيات فى شقته السرية الصغيرة هذه !

ومن بين أولئك الفتيات ، كانت هناك واحدة تدعى

فيليسيتيه لونجروا ، وهى ثانى امرأة تدعى فيليسينيه فى حياة نابوليون الخاصة

وهناك قصة حول فيليسيتيه تصورها على أنها كانت ضحية لـ « سادية » بونابرت .. وتزعم هذه القصة أن بونابرت أمر خادمين بتقييدها على السرير ووضع كمامة فى فمهـا .. وبعد أن أختفى الخادمان ، قام نابوليون بالاعتداء عليها .. تلك هى خلاصة القصة السخيفة غير المعقولة التى كانوا يروجون لها حينئذ .. اذ الواقع أن نابوليون لم يكن محتاجا لاستعمال العنف كى يحصل على فيليسيتيه ، لأنها كانت على استعداد لأن تمنحه نفسها .. ويبدو أن نابوليون قد تعلق بها بعض الوقت

كان والد فيليسيتيه يعمل حاجبا لمكتب الامبراطورة فى القصر . وكان يحصل على راتب قدره تسعون ألف فرنك فى الشهر ، عدا مبلغ مماثل كان يتسلمه كل عام كبدل للملابس ، وكان عمها ايضا يعمل منجدا فى خدمة الامبراطور والامبراطورة ، بعد أن كان « مرمما » لقطع الاثاث فى قصر لامويت فى العهد البائد . وكان العم هو الذى التحق أولا بخدمة الامبراطور ، ثم لحقت به فيليسيتيه فى ٢٢ اكتوبر عام ١٨٠٤ ، واخيرا والدها فى الثانى والعشرين من شهر نوفمبر التالى . وهكذا بدات خدمة الفتاة فى القصر قبل تتويج نابوليون ببضعة أسابيع .. أما علاقتها به فقد بدأت فى عام ١٨٠٥ ، بعد رحلة ايطاليا التى اتفق بعدها على عدة مواعيد بينهما ، التقيا فيها دون أى مضايقة من ناحيتها

وكانت جوزيفين راضية عن هذه المغامرة الصغيرة ، فلم تأمر بطرد الفتاة .. واستمرت فيليسيتيه فى تأدية مهام منصبها بمرتب قدره تسعون الف فرنك فى الشهر ،

اضافت اليها جوزيفين ضعفها كراتب اضافى. وفى خريف عام ١٨٠٧ ، تزوجت فيليسيتيه وأصبحت مدام ريزنير .. وحملت الفتـــاة من زوجها على الفـور . وانتهزت جوزيفين هــذه الفرصة لتقوية حجتها بخصوص عجـز بونابرت عن انجاب ذرية . وكانت مدام هاملان ــ احدى صديقات جوزيفين ــ تقوم بحملة دعاية واسعة حول هذا الموضوع ، وتحكى عن ذلك أشياء عجيبة كانت تصل الى أذن فوشيه وزير الشرطة . وكان فوشيه يسرع بابلاغ نابوليون بخطورة هذه الشـائعات .. ولكن جوزفين كانت تدلل على صدق زعمها بأن علاقة نابوليون بالنساء فى هذه الفترة من الزمن لم تعط ثمارا ، فى حين أنهن حملن ــ على الفور ــ بمجرد زواجهن . وكان النــاس يقفون بالذات عند حالة فيليسـيتيه .. !

وقد تركت فيليسيتيه القصر عند طلاق جوزيفين من بونابرت !



مؤامرة

فى خريف مايو عام ١٨٠٥ ، غادر نابوليـــون باريس ليتسلم قيادة جيشه الـكبير بعد أن نشبت الحرب من جديد مع النمسا وروسيا ، وانتهت الحملة بأعظم واشهر انتصار لنابوليون فى معركة أوسترلتز

وأثناء اقامة نابوليون فى مدينة فينا ، عرض عليه مورا زوج شـــقيقته أن يعرفه « بسيدة مدهشة » . قال له مورا : « أريد أن أعرفكم بسيدة رائعـــة متيمة بحبكم ، وهى لا تريد أحدا سواكم .. » وبرغم أن نابوليون كان قليل الثقة بمورا ، فقد طلب اليه ان يحضر هذه السيدة

وبعد ذلك باثنتى عشرة سنة ــ اى فى عام ١٨١٧ ــ قال نابوليون عن هذه السيدة لصديقه جورجو : « انها لم تكن تعرف كلمة واحدة من اللغة الفرنسية ، ولم أكن أعرف انا كلمة واحدة من الالمانية . ولكنها أعجبتنى كثيراً لدرجة أننى قضيت معها ليـــلة كاملة ، وكانت من ألطف من عرفتهن من النساء . وذات صباح أيقظتنى من النوم، ولم أرها بعد ذلك ابدا .. ولم أعرف قط من كانت هذه السيدة .. »

وأضاف نابوليون يقول : « ومع ذلك ، فقدصرح رئيس شرطة فينا فى عام ١٨٠٩ بأن هـــذه السيدة كانت تدعى

جوديث .. ولكن ربما كان ذلك الاسم من نسج الخيال »

ويبدو لنا أن هـذه القصة تتعلق بالكونتيسة « ن » التي ورد ذكرها فى مذكرات كونستان ، فقد كتب كونستان يقول :

« قبل رحيل الامبراطور من قصر شـونبرون فى عام ١٨٠٩ بيومين أو ثلاثة أيام ، حاول أحدهم اغتيال نابوليون مرة أخرى بعد محاولة ستابس . وفى هـذه المرة كانت امرأة هى المكلفة باغتياله ، وهى الكونتيسة ن ..

كانت الكونتيسة « ن » فى ذلك الحين تلفت اليها جميع الانظار لجمالها الفائق ، وأيضا لعلاقتها باللورد باجيت سفير بريطانيا . ومن الصعب أن يصف المرء مدى سحر هذه السيدة ورقتها .. وكانت صالونات فينا لا تفتح لها أبوابها الا مع شيء من الكراهية ، ولكنها كانت تستعيض عن ذلك باستقبال ألمع عناصر الجيش الفرنسى فى منزلها الخاص !

وفكر أحد متعهدى الجيش فى أن يتيح للامبراطور أن يتصل بهذه السيدة .. وعرض الرجل الامر على الكونتيسة دون أن يحيط صاحب الجلالة علما بذلك . وكان اتصاله بها يتم عن طريق أحد أصدقائه ، وهو ضابط نمساوى من فرقة الفرسان كان ملحقا بالشرطة العسكرية فى مدينة فينا .. واعتقد ضابط الفرسان هذا أنه كان يتحدث بأمر من جلالة الامبراطور ، فأخبر الكونتيسة ـ بكل سذاجة ـ أن الامبراطور سيسر أيما سرور برؤيتها فى قصر شونبرون فى مساء نفس اليوم ، وكان الضابط يتحدث اليها فى الصباح ..

وطلبت الكونتيسة أن تعطى مهلة للتفكير فى الامر أثناء

النهار .. واضافت انها تريد أن يبرهن لها ــ بأدلة لاتقبل الشك ــ على أن الامبراطور يريدها حقا ، فأكد لها الضابط صدق قوله ، ووعد بأن يقدم لها الادلة الكافية .. واخيرا رحل بعد أن ضرب لها موعدا فى المساء

وعاد الضابط الى المتعهد واخبره بما تم ، فاعد هذا عربة لتكون جاهزة تحت تصرف الضابط فى المساء . وفى الموعد المتفق عليه توجه ضابط الفرسان الى الكونتيسة وهو يعتقد أنه سيعود بها معه ، ولكنها رجته أن يعود اليها فى اليوم التالى محتجة بأنها ليست على استعداد لتلبية طلبه ، وانها فى حاجة الى شىء من التفكير . وابدى لها الضابط بعض الملاحظات ، ثم انصرف بعد أن أعطته كلمة شرف بأنها ستكون مستعدة فى اليوم التالى

وصرف الضابط العربة بعد أن امر سائقها بأن يعود فى اليوم التالى ، وفى نفس الموعد ..

وفى هذه المرة استقبلته الكونتيسة فى مزيج من الاهتمام والسرور .. ووجدها الضابط مستعدة فعلا للرحيل . وجعلته يثق بذلك بأن أرته ملابسها التى رتبتها كمـــا لو كانت مقبلة على سفر طويل .. وأخيرا نظرت فى عينيه، وقالت له بغير كلفة :

ــ يمكنك الآن أن تعود لاصطحابى بعد ساعة واحدة ، وسوف تجدنى على استعداد تام للرحيل .. نعم ، اننى سأذهب لمقــابلته ، ويمكنك أن تعتمد على فى ذلك . اما بالامس ، فقــد كانت لدى بعض الاعمــال التى يجب أن أصفيها .. انك لاشك نمساوى وطنى ، وستبرهن على ذلك .. وانت تعرف بالطبع مدى الاضرار التى يلحقهـا هذا الرجل بوطننا .. حسنا ! اننى ســأنتقم لبلادنا فى هذا المساء! .. فتعال لتأخذنى ، ولا تتخلف عن ذلك ..

واستولى الذعر على الضـابط حين علم بنية المرأة ، واسرع من فوره الى قصر شونبرون وقص على الامبراطور كل شيء ، فكافأه بسخاء .. وحثه على ألا يرى الكونتيسة بعد ذلك من أجل مصلحته الشخصية .. وأمره نابوليون بألا يذكر شيئا عن هذه المسألة

ويبدو أن تلك هى القصـة التى لمح بها نابوليون الى صديقه جورجو فى مايو من عام ١٨١٧ ، حين قص عليه مغامرته مع السـيدة النمساوية اللطيفـة .. ولم تكن جوديت بالطبع هى بطلة هذه المغامرة



استيفاني

كان النقاد يرددون ـ بعد أفول نجم نابوليون ـ انه قلما كان يتحرج من ممارسة « حق السيادة » . وكانت احاديث جوزيفين نفسها هي مصدر هذه الشائعات ..
الم تقص جوزيفين مثلا ان زوجها قد حاول الاعتداء على عفاف كاترين دى دستفاليا الخطيبة التي كانت تنتظر شقيقه جيروم ؟ ..

وعلى الرغم من ان أحدا لم يكن يصدق جوزيفين ، فقد صدق الناس ـ وربماكان لهم الحق في ذلك ـ ان نابوليون قد مارس حق هذه السيادة على قريبة شابة لجوزيفين تدعى « استيفاني دى بوهارنيه »

كانت استيفاني هذه في السابعة عشرة من عمرها ، أو أقل قليلا ، حينما أخذ الناس يتحدثون عنها .. ولكنها كانت حينذاك ناضجة مكتملة النمو تبدو كأنها في الحادية والعشرين .. ولما كان نابوليون يحـــاول أن يوفق بين مصالح السياسة وأطماع أسرة جوزيفين ، فقد قرر أن يزوج استيفاني دى بوهارنيه من الامير لويس أمير بادن . وكان قد اتخذ قراره هذا في نفس الوقت الذي قرر أن يزوج فيه أوجين دى بوهارنيه ـ ابن عم استيفاني ـ من أوجستا أميرة بافاريا ..

كانت استيفانى شابة شقراء ، زرقاء العينين ، ذات وجه جميل وبشرة مخملية .. وكانت مرحة خفيفة الظل ذات صوت ساخر . ولم تكن استيفانى تأمل فى زواج يرفعها الى مصاف الاميرات .. ولكن نابوليون كان يعد لها مشروعات أخرى . وسواءاكان قد مارس معها « حق السيادة » ام لم يمارسه ، فمما لاشك فيه أنها كانت تفتنه بسحرها وخفة روحها ، وكثيرا ما كان يفكر فيها قبل معركة أوسترلتز .

وبعد عودته من النمسا ، أمر باستدعائها الى القصر ، وجعلها تقيم فى شقة مجاورة لجناح جوزيفين ، وبدأ يهتم بها اهتماما كبيرا منذ ذلك الحين . وكثيرا ما كان يثيرها كى تجيب عليه بحرية وبغير كلفة .. لانها كانت على حد قوله : « ساحرة وذات حيوية دافقة » . ومن هنا بدأت جوزيفين تشعر بالقلق ، ويبدو أنها تشاجرت مع زوجها لهذا السبب .

واستمر نابوليون مع ذلك يدلل استيفانى ، فقدمنحها ثيابا تقدر قيمتها بخمسة وعشرين مليونا من الفرنكات ؛ وأهداها كميات كبيرة من الحلى والمجوهرات ، وعقدا بديعا من الماس .. ومنحها أيضا ستة ملايين من الفرنكات كمصروف شخصى ، ودوطة قيمتها ٤٥ . مليونا من الفرنكات .. كل ذلك بمناسبة زواجها !

ولم يتوقف سخاؤه عند هذا الحد ، اذ منح والدها ــ الذى عينه عضوا فى مجلس الشيوخ ــ وظيفة شرف جعلت راتبه يصل الى خمسة عشر مليونا من الفرنكات فى العام . واضاف نابوليون الى ذلك سبعة ملايين من الفرنكات كهبات ، ثم منحه وظيفة « فارس شرف » ، يصل راتبها السنوى الى تسعة ملايين من الفرنكات .

والواقع أن مثل هذا الجمع بين وظائف عديدة مختلفة ، لم يحدث مثله من قبل ..

ولم يعبأ نابوليون « ببروتوكول » القصر ، واعطى لستيفانى حق الجلوس على أعلى مقعد الى يمين الامبراطور، ولم يكن لها حق الجلوس الا على كرسى صغير . وهكذا كانت لها الاسبقية على جميع « صاحبات السمو » فى العائلة ، وأيضا على جميع سيدات عائلة بونابرت ! .. وبلغ كرمه الذروة حينما تبناها ، فانها ستصبح غدا زوجة لأمير بادن ، ولكن بوصفها ابنة لامبراطور فرنسا . وكانت الكارثة الكبرى حين منحها اقطاعية تحكمها ، فقد ارتكب بذلك خطأ فاحشا اذ جرد نفسه من هذه الاقطاعية الهامة التى كانت دويلة ألمانية اسمها : بريجزو . والواقع أن نابوليون لم يكن يعرف جيدا جغرافية ألمانيا ، ومن ثم فقد بعث برسول خاص الى بلاط بادن ليخبر الامير « بأن الامبراطور يمنحه كدوطة اقطاعية بريجزو » . واضاف الرسول قائلا : « وأظن أن فى نية الامبراطور أن يضيف الى هذه الاقطاعية أورتناو » . ولم يكن نابوليون يعرف ماهى أورتناو هذه !

وكانت أورتناو دويلة صغيرة فى اقليم «صواب» ..وقبل نابوليون أن تضاف هذه الدويلة الى دوطة استيفانى دون أن يدرى ما ستسببه هذه الهدية من فرح فى بلاط بادن : فهو لم يكن يعرف قيمتها . ولو أنه كان قد احتفظ فقط ـ كما نصحوه ـ بدويلة بريجزو ، لاصبحت بفضلها منطقة فيوبريزاج حصنا رهيبا يفوق فى الاهمية مدينة كيل بكثير . ولو لم يحدث هذا التنازل من جانب نابوليون ، لما استطاع الحلفاء قط غزو منطقة بازل فى عام ١٨١٤ ، حين هبت أوروبا تثأر منه ..

وأمر نابوليون بأن تقـــام الزينات فى باريس احتفالا بزواج استيفانى . واقيمت الحفلات الراقصة فى كل مكان .. وكانت الصغيرة استيفانى تعيش فى نشوة بسبب ذلك . ومن المعروف أنها منعت عريسـها من الدخول الى غرفتها ليلة عرسها .. وقرع الامير باب الغرفة راجيا متوسلا دون جدوى ، حتى اضطر أخيرا الى قضاء ليلته على مقعـد كبير . ولم يخف نابوليون سروره حين علم بالامر ! .. وتكرر نفس الشيء فى الليالى التالية

وقررت جوزيفين أن تضع حـدا لهذه المهزلة بتحطيم اوهام الفتاة وتمكين الزوج من ممارسة حقه الشرعى ؛ فأوضحت لزوجها مدى السخرية التى يثيرها بمساندته لآمال الفتاة الخيـالية .. وأخبرته بأنه لا يستطيع أن يترك ألسنة السوء تتسلى على حسابه فى البلاط ، مدة أطول من ذلك .. فهو أمر لا يليق بكرامته أو بسـنه ، وأصرت أخيرا على أن يعمل على تحطيم عناد هذه الفتاة..

وخضع نابوليون لرأى زوجته ، وعجل برحيل حبيبته الصغيرة الى بلاد زوجها .. وكان يتصور انها حين تصبح بعيدة عنه ، فلا بد أنها ستسلم نفسها لزوجها . وأخيرا رحلت استيفانى وقد بلغ اليأس من نفسها أقصاه !

ومن الغريب أنها ظلت فترة من الزمن دون أن تستسلم لزوجها أمير بادن ، وكأنما تريد أن تحتفظ بنفسها خصيصا من أجل بونابرت . ولكن السياسة التى كانت تقضى حينئذ بالا تحدث فضيحة فى بادن اضطرتها للخضوع آخر الامر ، ولاسيما أن صدى مثل هذه الفضيحة كان خليقا بأن يكون خطيرا بالنسبة لنفوذ الحكومة الفرنسية هناك .. ولم يهدأ نابوليون الا حينما اعلنت له استيفانى انها حامل ، واستطاعت استيفانى أن تجد السعادة الى جوار زوجها

الذى كان يحبها ويعطف عليها .. ولكنها ترملت فى عام ١٨١٨ وكان شـــقاؤها عظيما بفقـدانها لجميع أولادها الذكور ..

لقد كان لدى نابوليون هوس لتزويج الناس ! .. ونادرا ما نجحت الزيجات التى تسبب فى عقدها .. وربمـا كان زواج أوجين دى بوهارنيه من أوجستا أميرة بافاريا هو الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة !



فتاة من برلين

احتفل بزواج استيفانى فى بداية شهر ابريل من عام ١٨٠٦ . وفى ٢٥ سبتمبر من نفس العام ، غادر نابوليون قصر سان كلو وانتقل الى مدينة مايونس فى المانيـــا . ولاحظ الجميع انه كان « منشغلا بمزاجه انشغـــالا كبيرا » .. وكان نابوليون قد اصبح رجـــلا بدينا فى السابعة والثلاثين

وفى ١٤ اكتـــوبر ، انتصر قائده دافـــوفى فى معركة أورستادت ، وانتصر نابوليون فى معركة يينا .. ولكـــن كان يجب عليه - بعد هزيمة جيش بروسيا - إحتلال هذه البلاد وانتزاع حصونها ، ولذلك بدأ حملة عسكرية جديدة مع الروس حلفاء البروسيين

ودخل نابوليون مدينة برلين فى ٢٧ اكتوبر ، واقـــام بها حتى الخامس والعشرين من نوفمبر . ولم يحرم نفسه أثناء هذه الفترة من المواعيد الغرامية ، ويبرهن على ذلك بوضوح المبالغ المرصودة فى دفاتر حســـابات مصاريفه الخاصة . وهناك أيضا مشتريات لغراميـــات طارئة مع سيدات من برلين وصلت قيمتها الى خمســـة عشر مليونا من الفرنكات . ومن مغامراته العـــاطفية فى ذلك الحين ، مغامرة مشهورة تحدث عنها نابوليون نفسه

عدة مرات .. فقد حدث أثناء استعراض عسكرى كبير فى برلين ، ان اقتربت من نابوليون فتاة شابة وبصحبتها سيدة متقدمة فى السن الى حد ما .. قدمت الفتاة شكوى مكتوبة الى الامبراطور . ولما عاد الى قصره قال يخاطب خادمه كونستان :

ـ إقرأ هذا الطلب ، وستجد فيه عنوان السيدتين اللتين قدمتاه .. ثم اذهب اليهما لتعرف من هما وماذا تريدان ..

وقرأ كونستان الورقة ، ثم قال :

ـ ان الفتاة تطلب شرف المثول بين يدى الامبراطور لحديث خاص ..

وأمره نابوليون بالذهاب لاحضارها على الفور .. وذهب الخادم الى هناك ، فوجد المرأتين تنتظران ..

كانت الفتاة آنسة فى حوالى السادسة عشرة من عمرها ، وكانت لاتعرف كلمة واحدة من اللغة الفرنسية أو الايطالية .. ولم يكن الخادم يعرف غير هاتين اللغتين .. ولكن السيدة العجوز ـ وهى والدة الفتاة كانت تعرف بضع كلمات فرنسية ، ولكنها كانت كافية للتفاهم ..

وذكرت السيدة للخادم انها أرملة ضابط بروسى ، وانها تأمل فى ان يستقبل الامبراطور ابنتها ، ولكنها ترغب فى أن تحضر المقابلة بينهما ..

وحاول الخادم ان يبين للمرأة ان « الحديث » يخص ابنتها وحدها ، وأن تقاليد « البروتوكول » لاتسمح بوجودها .. ولكنها أصرت على رأيها ، واخيرا لم يجد مناصا من أن يعود الى سيده ويخبره بما حدث ..

وأمره نابوليون بأن يحضرهما معا فى احدى العربات، وجاءت الفتاة ووالدتها فى العاشرة مساء عند قاهر بروسيا ..

واستطاع الخادم ان يحتجز الام فى احد مكاتب القصر ، واصطحب الابنة لمقابلة سيده ..

وكان انتظار الام طويلا ، فقد احتفظ نابوليون بالفتاة الصغيرة شطرا طويلا من الليل على خلاف عادته ، ويرجع ذلك الى ان الطرفين لم يكن فى وسعهما التفاهم الا بالاشارات

وفى الصباح ، نادى نابوليون على خادمه الخاص وأمره باحضار مليون ونصف مليون من الفرنكات . وسلم الامبراطور المال بنفسه الى الفتاة البروسية الجميلة ، التى فرحت به ايما فرح . وعادت الابنة الى امها .. وأوصلهما كونستان حتى مسكنهما ..

وبعد عودة كونستان ، قص عليه نابوليون كيف ان خلوتهمع هذه الفتاة الجميلة كانت خلوة ممتعة .. وكيف أنها كانت تقول له من فرط سرورها : « يالك من شقى ! .. يالك من شقى ! »

وكانت ثمة ذيول لهذه المغامرة القصيرة .. فقد أصبح لهذه الفتاة عشاق آخرون من بعد بونابرت ، وكان من بينهم ضابط فرنسى جعلها تتعلق به ، واصطحبها معه الى باريس . وهناك ، انتهى امرها الى العمل فى منزل يدار للدعارة .. وذات يوم ، هربت الفتاة من المنزل ، والتقت بكونستان مصادفة فى شارع ريشيليو فقصت عليه ما صادفته من كوارث بلغة فرنسية سليمة ، واختتمت حديثها معه قائلة :

ـ ذكره بى .. لقد وعدنى عشر مرات بأنه سوف يرانى مرة ثانية ، وأنه لن ينسانى أبدا !

ولكن الوقت كان قد فات .. فقد كانت علاقات فتاة برلين بضباط جيش نابوليون كافية لان تبعده عنها الى الابد !





غرام نابليون
بالكونتيسة البولندية

ماری فاليفسكا

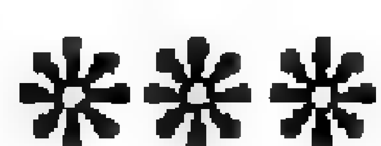
غادر نابوليون برلين الى مدينة بوزنان فى بولندا ، ثم ظهر فى وارسو لمدة يومين أو ثلاثة خلال شهر ديسمبر عام ١٨٠٦ . وفى نهاية هذا الشهر ، توجه الى مدينة بولتوسك ومنها عاد الى وارسو مرة أخرى فى أول يناير عام ١٨٠٧ ، فى الساعة الثامنة مساء . .

وكانت اقامة نابوليون فى العاصمة البولندية اقامة ساحرة بالنسبة له ، ولضباط أركان حربه على السواء ، فقد كانت حياتهم هناك ، تشبه حياتهم فى باريس ، زاخرة بحفلات الاستقبال والحفلات الراقصة والموسيقية . وكانت هناك غراميات لمعظم ضباط اركان حرب الامبراطور القاهر .. أما بالنسبة له ، فقد بدأت حينذاك علاقته الشهيرة بمدام فاليفسكا ، وهى العلاقة التى دامت بضع سنين

وقد ذاعت أساطير عديدة حول قصة غرام بونابرت بهذه السيدة الجميلة التى كانت له بمثابة الزوجة البولندية .. ومجد الرواة هذه الشابة الحسناء ، قال بعضهم كانت ضحية لزوج شيخ كريه ، وقال آخـــرون انها بطلة وقال قائل آخر بأنها مثل أعلى للفضيلة والحب والاخلاص

والواقع ان حقيقة امرها ليست معروفة على وجه التحديد ، فان تاريخ علاقتها الغرامية بنابوليون لم يعرف

حتى الآن ، وهو لايزال موضع بحث من المؤرخين . وهناك ثلاثة مصادر رئيسية بخصوص هذه العلاقة : اعترافات ماري فاليفسكا بطلة القصة ، وروايات الكونت بونياتوفسكي ، وأحاديث نابوليون نفسه . وتختلف هذه المصادر فيما بينها اختلافا كبيرا ، وأطولها هي اعترافات ماري فاليفسكا ، في حين كانت تصريحات نابوليون اقصرها



كانت الكونتيسة ماري فاليفسكا في الواحدة والعشرين من عمرها حينما وصل نابوليون الى وارسو ، وكانت في ذلك الوقت زوجة وأما . والكثيرون من الرواة يحاولون تجاهل هذه الحقيقة الاخيرة ..

ولدت ماري في بلدة لا كزينسكا من والد نبيل فقير كان ربا لاسرة كبيرة العدد تتكون — عدا زوجته — من اربعة أولاد وبنتين ! وتلقت ماري علومها الاولى على يدى شيخ نبيل كان أحسن حالا من والدها . ولما شبت عن الطوق ، الحقها والدها باحدى المدارس الداخلية في الاقليم ، واخيرا ذهبت لتتلقى العلم في وارسو ..

وقد نشأت ماري تتحدث اللغة الفرنسية والالمانية ، وترقص الفالس والمازوركا البولندية ، ولم تكن تحب الحياكة أو أشغال الابرة ، وانما كان كل اهتمامها موجها للقراءة والموسيقى وركوب الخيل .. والمرء لا يملك الا ان يعجب بوالدتها التى استطاعت رغم حياتها المثقلة بالديون والرهونات ان تربى أولادها هذه التربية الممتازة !

ولما عادت ماري الى منزلها — وهو قصر قديم تملكه الأسرة — في بلدة كيرنوزيا ، استقبلتها والدتها قائلة :

« لقد أصبحت مارى شابة جميلة .. فليتكرم الله ويرزقها سريعا بزوج طيب ، فسوف يخفف هذا من وطأة الحياة علينا »

وكان للاسرة جار ثرى من النبلاء من ذوى النفوذ يدعى الكونت « فاليفسكى » .. كان يذهب الى الكنيسة فى أيام الآحاد تحيط به حاشية كبيرة . وكثيرا ما كان يقيم حفلات للرقص والاستقبال يدعو اليها الاصدقاء والاتباع

ولم تضـــع الارملة لاكزينسكا والــدة مارى وقتـــا ، فاصطحبت ابنتها الى الكنيسة . وهناك ، حدث ماكانت تسعى اليه ، ودعاها الكونت هى وابنتها لتمضية يوم فى قصره ..

وذهبت الفتاة مع والدتها الى قصر فاليفسكى ، واخذت الام تطرى جمال ابنتها وصفاتها على مسمع من الكونت ، ودفعتها الى أن تعزف له على البيانو ، وكانت تريد بذلك أن تجذب اهتمامه الى الفتاة الشابة بأى ثمن .. !

وعزفت مارى كل ما حفظته من مقطوعات .. واضافت الام بعد أن فرغت الفتاة من العزف أن ابنتها ممتازة فى الرقص كذلك . واسترعت عبارة الام انتباه الكونت ، فقال فجأة وكأنه تذكر شيئا :

ـ آه ! هل توافقان اذن على الحضور الى حفلة الرقص التى سأقيمها عندى ؟

فقالت الام ـ على الفور ـ فى حماس :

ـ بالطبع ياسيدى الكونت .. فمن واجب الاثرياء من السادة الاشراف أن يدعوا جيرانهم الفقراء من أمثالنا .. ان هذا يسهل على الامهات اظهار فتياتهن ..

وحدد موعد الحفل فى يوم الاحد التالى

وعادت الابنة ووالدتها الى منزلهما ، ومعهما جمل

كبير من الحلوى والزهور . وقالت الام تحدث الفتاة أثناء الطريق :

ـ ان فى وسعك أن تصبحى الكونتيسة فاليفسكا !

فأجابت الفتاة قائلة :

ـ آه !.. كلا .. فليحمنى الله من ذلك يا أماه !

وتلقت الفتاة صفعة قوية على وجهها .. فما كان منها الا أن أكملت بقية الطريق الى البيت صامتة لا تنبس ببنت شفة !

وفى يوم الاحد التالى ، رافقت مارى والدتها الى الحفل الذى أقامه الكونت تكريما لها ..

كان الكونت فاليفسكى فى السابعة والستين من العمر ، وكانت زوجته قد ماتت منذ أكثر من خمسة عشر عاما .. وفى الموعد المحدد ، وقف ينتظر مارى فى فناء القصر وهو يرتدى ملابسه الرسمية ذات الاوسمة العديدة ، ويمسك بيده باقة كبيرة من الازهار

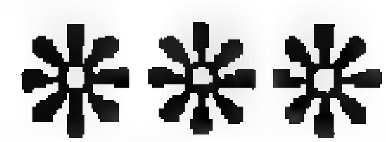
واثناء الحفل ، قدموا لها أحد النبلاء الروس ، واخبروها بأنه يتحرق شوقا لرؤيتها .. وأعجبت مارى أيما اعجاب بهذا الشاب الوسيم على الرغم من أن البولنديين كانوا لايحبون الروس .. وتبعا للتقاليد البولندية حينذاك ، لم يكن فى وسع مارى أن تتزوج من رجل روسى أو بروسى ، ومن ثم فقد رفضت هذا الشاب حين تقدم يطلب يدها فى اليوم التالى ..

وكان الكونت فاليفسكى قد ذهب مع الشاب الروسى يؤازره فى طلبه ، فلما رأى رفضها له ذهب يطلب يدها لنفسه فى اليوم التالى . ووضعت الام ابنتها ـ بعد رحيل الكونت ـ أمام أمرين لا ثالث لهما : فاما الزواج من الشاب الروسى ، واما الزواج من الكونت الشيخ .

واختارت ماری الشيخ البولندی ..!

وعقب موافقة ماری على هذا الزواج ، وقعت فريسة حمى شديدة جعلتها بين الموت والحـــياة لمدة ثلاثة أسابيع . ولما عادت الى وعيها ، وجدت الكونت فاليفسكى واقفا الى جوار فراشها ، فأصيبت بنكسة جـديدة تسببت فى تأخير حفل الزواج مرة أخرى . ثم انتهى كل شيء كما ارادت والدتها .. وبذلك أصبحت مـــارى لاكزينسكا الكونتيسة فاليفسكا ..

وكان الكونت فاليفسكى رجلا ممتازا ، فلم يتوان عن مصارحة زوجته بأنه لم يعد فى سن تتيح له أن يبـادل الحب فتاة شابة مثلها ، وأنه يقنع بأن تبادله الصداقة والثقة . وكان الرجل شهما كريما ،فلم يكتف بأن هيأ لزوجته مركزا مرموقا ، وانما أخذ ينفق على الوالدة وأولادها ، وهكذا تحسنت حالتهم منـــذ ذلك الحين تحسنا ملموسا !



وعاشت ماری هكذا ثلاث سنوات أصبحت خلالهـــا اما .. ويدل ذلك على أن الكونت لم يكن هرما ميئوسا منه كما صورته كثير من الروايات .. كانت مـــارى قصيرة القامة ، لها فم جميل وعينان ساحرتان . وكان شعرها كستنائيا فاتحا . ولم يكن جمالها من نوع نادر المثال ، ولكنها كانت تتمتع بقسط وافر من الجـــاذبية والرقة والنعومة . وكانت ابتسامتها اللطيفة ، ونبرات صوتها الساحرة ، وعذوبة حديثها .. كل ذلك كـــان يمتزج بشيء من الاعتـــدال فى الزينة والبســـاطة فى الحركات ..

ولما بدأت حملة نابوليون ضد بروسيا فى نهايةسبتمبر

عام ١٨٠٦ ، اقترح فاليفسكي على زوجته الرحيل الى وارسو لقضاء فصل الشتاء هناك . واشترى الكونت منزلا جديدا ، أثثه تأثيثا فاخرا كي يجعل من صالون الكونتيسة فاليفسكا نداً لاحسن صالونات وارسو

كانت زيارة نابوليون الاولى للعاصمة البولندية زيارة قصيرة .. ولكنه ما أن عاد اليها في أول يناير عام ١٨٠٧ ، حتى كان كل شيء قد أعد لاستقباله استقبال الفاتحين . ولما علمت ماري — السيدة الوطنية المتحمسة — بوصول نابوليون قاهر بروسيا عدوة بولندا اللدود ، قررت أن تخرج لاستقباله ، مثلها في ذلك مثل كل البولنديين الذين خرجوا للقائه ان طوعا أو كرها ، والذين يقيمون على طول الطريق الذي سيأتي منه الزائر العظيم .. وخرج مع هؤلاء عدد من سكان مدينة وارسو .

أمرت ماري باعداد عربة ذات أربعة خيول ، ركبت فيها سرا مع احدى بنات عمومتها ، وكان المنادون يعلنون في كل مكان ان نابوليون يقترب من مدينة بلوني ، فاصدرت امرها للحوذي بأن يتجه بسرعة الى بلوني .. وعند أبواب المدينة ، غادرت السيدتان العربة واختلطتا بالجمهور ، وكان الزحام شديدا يكاد يخنق الانفاس !

واستولى اليأس على نفس ماري ، اذ كيف سيتسنى لها أن تراه وسط هذه الحشود الهائلة من الناس ؟ .. لقد كانت روحها تكاد تغلى من فرط الحماس ... ألم يحارب نابوليون بروسيا ، وغدا سيحارب روسيا أيضا ، وكل ذلك من أجل اعادة تكوين دولة بولندا ؟ ولكن هاهو ذا يصل .. نعم ، انها عربة البطل !

وبلغ اليأس من نفسها اقصاه ، فقررت ان تفعل اى شيء .. وفي هذه اللحظة ، وقع بصرها على ضابط من

الجيش بدا لها أنه من كبار رجال حاشـية نابوليون ، فأخذت تصيح فى عنف كى تلفت نظره اليها . ولمانجحت اخيرا فى اثارة اهتمام الضابط ، صاحت تقـول عـلى الفور : « آه ! خذنا من هنا ياسيدى .. انني أريد أن اراه لحظة واحدة ! .. لحظة واحدة فقط ! »

ولم يتمالك الضابط من فرط مالمس من حماسـها وحرارة لهجتها ، الا أن يمسك بها من يدها ويخرجها من وسط الزحام . ولشد ماكانت دهشتها حينمـا وجدته يتجه مباشرة نحو باب عربة نابوليون !

قالت مارى فى انفعال وتأثر كبيرين :

ـ مولاى ! .. انظر كم من الصعاب تحملتها من اجل رؤيتكم ..

ورفع نابوليون قبعته محييا ، ثم انحنى نحوها وتمتم ببضع كلمات لم تسمعها مارى من فرط الانفعال ، بينما استمرت فى حديثها الذى كانت قد أعدته قائلة :

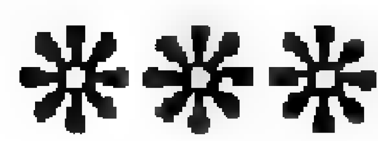
ـ مرحبا بك ألف مرة فى بلادنا !.. إن كل مانفعله لايمكن أن يعبر عن عمق المشاعر التى نكنها لشخصكم ، وأنتم تطأون أرض هذا الوطن الذى ينتظركم لينهض من كبوته ..

وكانت مارى ـ كما ذكرت فى اعترافاتها فيما بعد ـ فريسة للهذيان ، وهى تنطق بهذه الكلمات التى كـانت تضطرم فى نفسها .. واضافت تقول فى هذه الاعترافات: « لست ادرى كيف استطعت أن أفعل ذلك على الرغم من خجلى الطبيعى ! »

ولم يفت نابوليون أن يعبر عن اعجابه بالسـيدة الشابة الجميلة ، فقدم لها باقة من باقات الزهورالتى كانت تملأ عربته ، وقال :

ـ احتفظى بهذه الزهور عربونا على نياتى الطيبة ، واتعشم أن اراك فى وارسو .. اننى ساطالبك بشكر يصدر من ثغرك الجميل !

وعاد الضابط الكبير بسرعة الى مكانه بجوار نابوليون ... واخذت العربة تبتعد رويدا رويدا ، والبطل لايزال يلوح بقبعته للسيدة البولندية .. أما مارى، فقد تسمرت فى مكانها ، وراحت تتابع العربة بنظرها حتى اختفت فى آخر الطريق . واضطرت ابنة عمها أن تتدخل « لتعيدها الى نفسها » .. واخيرا حملت كنزها الثمين من الزهور وعادت الى بيتها . وكان الوقت متأخرا ، فنامت على الفور من فرط السعادة والارهاق ..



أقام نابوليون فى وارسو .. ولما لم تهرع اليه السيدة البولندية فى الموعد المحدد الذى ضربه لها ، أصدر على الفور أوامره للشرطة بالبحث عنها .. وبحثوا عنها فى كل مكان دون جدوى . واخيرا لجأ الى كل اعيان العاصمة ولاسيما الكونت بونياتوفسكى الذى سيجعل منه ماريشالا فيما بعد .. وكان لذلك الكونت عشيقة فرنسية تدعى هنرييت بوجيه ، وكانوا يدعونها بمدام فوبان . وكانت مدام فوبان هذه تعرف عائلة لاكزينسكى منذ زمن طويل ، ولاسيما مارى . وعن هذا الطريق ، عرفوا أن السيدة المجهولة هى الكونتيسة الشابة مارى قاليفسكا

ان مارى نفسها هى التى قصت علينا كل ما قلناه تقريبا حتى الان .. وذلك أنها حاولت حينما اهملها نابوليون بعد سقوطه ـ وحتى قبل أن يسقط ـ أن تدافع عن نفسها ، وأن تجمع الحجج والاعتذارات لتبرير موقفها

امام أهلها وبلدها ، لانها كانت حينذاك قد أدركت سقطتها . وهى تقص كيف انها استسلمت آخر الامر بعد مقاومة طويلة .. وافاضت فى ذكر التفاصيل بشىء من التزييف ، كما يحدث عادة فى مثل هذا النوع من الدفاع عن النفس ، وهو دفاع طبيعى ومشروع على أية حال . انها تظهر نفسها وكأنما قد ضحى بها فى سبيل قومها .. وهى تبين لنا أيضا أنها كانت ضحية مدام فوبان ، المرأة الخبيرة ، وهى الصبية الساذجة التى كانت فى الثامنة عشرة من عمرها !.. ولكنها كانت فى الواقع تعرف جيدا من هى مدام فوبان هذه ، وتعرف انها كانت عشيقة لبونياتوفسكى ، فضلا عن انها كانت حينذاك اما، وفى الحادية والعشرين من عمرها .. ولكن لندع كل ذلك ولنمض فى قصتنا ..

هاهو ذا الكونت بونياتوفسكى يقف امام مارى،ويحكى لها شوق نابوليون المبرح الى لقائها .. والح عليهاالكونت ان تحضر حفلا كبيرا راقصا كى يتامل ضيوف الامبراطور اجمل زهرة فى ارض بولندا .. قال بونياتوفسكى :

ــ هيا .. هيا .. دعك من هذا التواضع ..لاتحاولى ان تخفى انتصارك الكبير ، فقد انكشف سرك ..

وقاومت مارى ، وأخبرت بونياتوفسكى بانها تترك نابوليون لمن تردنه من النساء الاخريات اللاتى هن اكثر جدارة به منها ، ولكنه أجابها قائلا :

ــ ان المسألة لاتتعلق ابدا بجدارة النساء الاخريات .. انه يفضلك انت ، ولايريد أحدا سواك ..فاستخدمى اذن كل وسائل الاغراء .. اننى اتوسل اليك أن تضحى بنفسك قربانا للوطن .. هيا وسنسير جميعا من خلفك ومن يدرى ؟ لعل السماء قد ارسلتك لجمع شمل الوطن

واعادة بنائه من جديد !

وأصرت ماري على الرفض .. والح عليها اشخاص آخرون من كبار شخصيات المدينة . واخيرا تنازلت ووافقت على الذهاب الى الحفل بعد أن اصبحت المسألة وكأنها مطلب شعبى !

وارتدت ماري ثوبا ومعطفا من الحرير الابيض ، ووضعت على رأسها تاجا من الازهار .. وعاونهازوجها بنفسه فى « اعداد زينتها » ، فقد كان يخشى ان تصل متأخرة فتجد نابوليون قد غادر الحفل ..

ووصلت ماري الي المكان ، وسارت بين جموع كبيرة من الضيوف منتشرة هنا وهناك فى الصالونات .

واستطاعت أن تسمع همسات الاطراء تنبعث من كل مكان . واخذ الناس يسألونها عن سبب التأخير . واخيرا اوقفوها بين سيدتين لم تكن تعرفهما ..

وتسلل بونيافسكى الى جوارها على الفور ، وهمس فى اذنها قائلا :

ـ انه كان ينتظرك بفارغ الصبر ، وسر أيما سرور حين رآك تدخلين .. لقد جعلنا نردد له اسمك مرارا حتى حفظه عن ظهر قلب . انه تفحص زوجك مليا ، ثم هز كتفيه وقال : ياللضحية المسكينة ! والتفت الى ثم اصدر لى امرا بأن ادعوك للرقص ..

فقالت :

ـ اننى لا ارقص ، وليست لدى اية رغبة فى الرقص

فقال بونياتوفسكى فى دهشة كبيرة :

ـ انه أمر ياسيدتى ... وليس فى وسعك ان تهربى منه !

فقالت ماری وهي تضحك :

ـ أمر ؟!.. وهل يرقص الناس أيضا طبقا للاوامر؟ كلا .. كلا .. انني لست دمية حتى تجعلوني أدور وفق مشيئتكم ..

ـ كيف ؟.. هل تتمردين بمثل هذه السرعة ؟ ..

ـ نعم . انني اتمرد دائما على الظلم ، وعلى الطلبات غير المعقولة

ـ ولكن ارفعي عينيك بحق السماء ! .. أنظري .. هل ترين انه يراقبنا ؟ أتوسل اليك ..

ـ انني لا أترك مكاني هذا مهما تكن النتائج .. هيـا اذهب وقل له انني لا أريد ان أرقص ..

ـ لاشك انك تمزحين ياسيدتي ، فأنت لا تريدين احراجي بالطبع !..

ـ انك انت الذي تسبب لي الحرج بالحاحك هذا !. ارجو أن تدعني شفقة بي ، فالعيون كلها تتطلع الينا ..

واضطر الكونت أخيرا أن يبتعد .. وقص ماداربينه وبينها على دوروك ، الذي أخبر ـ بدوره ـ نابوليون بما حدث ..

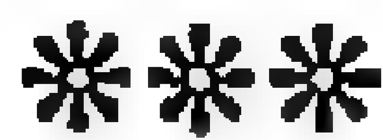
وعقب انتهاء الرقص ، نهض نابوليون واخـذ يطوف بالقاعة في صحبة بونياتوفسكي . وكان يوجه لكل سيدة بالحفل عبارة أو كلمة لطيفة ، ولكنه كان بادي القلـق والانشغال . وسأل احدى الآنسات عن عـدد أولادها ، وسأل امرأة أخرى عما اذا كان زوجها يغـار عليها ، واستفسر من سيدة بدينة عما اذا كانت تحب الرقص . وكان قلب ماري أثناء ذلك يدق فزعا لانه كان قد أصبح على قيد خطوات منها . وكانت نظراته التي لا تبارحها تجعلها « تنتفض من قمة رأسـها الى أخمص قدميها »

ولما صار نابوليون أمامها ، غضت من بصرها ، ولكنها سمعته يقول لها :

ـ ان الابيض لايتفق مع الابيض ياسيدتى ..

ثم اضاف يقول بصوت منخفض : « ان استقبالك لى ليس هو الاستقبال الذى من حقى أن انتظره منك ..! »

ولكنها ظلت واقفة فى مكانها جامدة كالتمثال ، فلم تجب بحرف واحد أو ترفع اليه عينيها .. وظل يتأملها مليا لحظة طويلة ثم ابتعد . وغادر نابوليون القاعة بعد وقت قليل ، وحينئذ احست « بأن هما ثقيلا قد انزاح عن كاهلها »



وما ان عادت مارى الى منزلها حتى قدمت لها الخادم خطابا سريا جاء فيه :

« اننى لم أر أحدا سواك .. ولم اعجب الا بك ... ولا أرغب الا فيك .. وها أنذا انتظر بفارغ الصبر ردا يهدىء من النار المستعرة فى قلبى . ن »

وثارت مارى لهذا الاسلوب الذى يعبر عن الرغبة فى صراحة وعنف ، فألقت الخطاب جانبا وظلت جامدة فى مكانها ، وقد استولت عليها دهشة كبيرة ..

وصاحت الخادم تقول :

ـ هل تعرفين ياسيدتى من هو الشخص الذى ينتظر فى الخارج ؟ انه الامير بونياتوفسكى !

فأجابتها سيدتها قائلة :

ـ هذا لا يهم .. اذهبى اليه ياجولى وقولى له الا ينتظر اى رد ..

وعادت جولى بعد لحظة ، وقد استولى عليها الذعر .. ولشد ماكانت دهشة سيدتها حين رات الامير يتبع الخادم ، فأسرعت الى غرفتها وأوصدت على نفسها الباب بالمفتاح ، ثم صاحت من خلف الباب تقول للامير بأن قرارها هذا قرار نهائى ، وانها ترفض الرد على الخطاب مثلما رفضت الرقص من قبل ..!

ولكن بونياتوفسكى ظل واقفا بالباب ، يرجو ويتوسل اليها نصف ساعة كاملة . ولما لم يجد فائدة ترجى من وراء ذلك ، رحل أخيرا وقد تملكه غضب شديد . وكتبت مارى تقول انها ركعت حينئذ على ركبتيها تدعو اللهأن يحميها من هذه التجربة المريرة ، واضافت قائلة : « ان نابوليون لم يكن فى نظرى سوى تمثال كبير للعبقرية والآمال الوطنية وكنت أومن به وأعبده من بعيد ، ولكننى كنت أخشاه وأهرب منه عن قرب »

ولما استيقظت مارى صباح اليوم التالى ، وجدت خطابا آخر ينتظرها ، ولكنها لم تفض الخطاب .. وكان كل مافعلته أن ضمته الى سابقه فى مظروف واحد ، وامرت الخادم بتسليمه الى الرسول .. وذلك دون أن تكتب على الغلاف حرفا واحدا !

ونحب هنا أن نلفت نظر القارىء الى أن مدام فاليفسكا لم تخبر زوجها ووالد ابنها بأمر هذهالمناورات المفضوحة التى كانت تتعرض لها . وفى نفس اليومالذى تلقت فيه ذلك الخطاب الاخير ، عارضت زوجها معارضة شديدة ورفضت أن تظهر فى الصالون لتقابل بعض الشخصيات الهامة وكان من بينها دوروك . لقد كان من الميسور أن تعيد الهدوء الى نفسها بأن تصارح زوجها بأنها محط رغبة من نابوليون ، وتواطؤ من رجال

لا يهمم مصلحة بولندا فى قليل أو كثير ، وانما يبذلون كل جهدهم لتملق الامبراطور وارضاء نزواته ..

وطلب منها زوجها ـ الذى لم يكن يعرف شيئا عن هذه المناورات ـ أن تذهب الى حفل للعشاء سيحضره الامبراطور . ورفضت مارى وهى مستمرة فى اخفاء الحقيقة . وأخيرا ، وبعد الحاح شديد من جانبه قبلت طلبه وهى تقول : « لتكن ارادتك اذن هى النافذة ! »

وبعد قليل من الوقت ، أعادوا اليها الخطاب الثانى الذى لم تكن قد فضته . وفى هذه المرة ، فتحت الخطاب وقرات به مايلى :

« هل أغضبتك ياسيدتى ؟... ومع ذلك ، كان لى الحق فى أن آمل فى أن يحدث العكس .. ان شغفى بك يزداد فى الوقت الذى يقل فيه اهتمامك .. انك تنتزعين الراحة من قلبى المسكين ، فامنحى هذا القلب الذى يعبدك بعض السعادة والسرور .. هل الحصول على رد منك صعب الى هذه الدرجة ؟ .. انك مدينة لى بردين ! »

وماكادت تنتهى من قراءة هذه الورقة حتى دخل عليها زوجها .. ولم تفكر فى أن تطلعه عليها مع أنها كانت تستطيع أن تفعل ذلك بكل سهولة ..

وفى اليوم التالى ، ذهبت الى الحفل .. وكان مكانها فى مواجهة نابوليون ، والى جوار دوروك الذى ظل يهتم بها طيلة فترة العشاء ..

وقال دوروك يسألها :

ـ لماذا فتر حماسك ؟.. هل هناك زوج يغار عليك ؟

ودافعت مارى عن زوجها الكونت ، وقالت ان شعورها الوطنى فحسب هو الذى جعلها ترتمى فى طريق نابوليون

فهى تريد « أن يكون لابنها وطن »

وعقب دوروك على ذلك بقوله :

ـ ان نجاح هذا الامر يتوقف عليك وحدك ياسيدتى، ولكنك تلفظين النعمة .. اطلبى أى شىء وسوف يجاب طلبك !

كان نابوليون يراقبها طيلة الوقت ، وكان يرسل اليها خفية اشارات تدل على ولهه وفقدان صبره ؛ فيترجم لها دوروك معنى هذه الاشارات . وفى هذه اللحظة ، وضع نابوليون يده على العروة اليسرى لسترته « واحتار دوروك فى فهم معنى هذه الاشارة » ـ كما قالت مارى فيما بعد ـ ولكنه مالبث أن صاح يقول فجأة وقد أدرك مايعنى نابوليون :

ـ آه !.. وماذا فعلت بباقة الازهار ؟

فأجابته مارى تقول :

ـ انها باقة ثمينة بالنسبة الى ، ولذا تجدنى أحافظ على كل زهرة فيها .. فهى ميراث احتفظ به لولدى..!

فقال دوروك :

ـ آه ! .. تنازلى ياسيدتى واسمحى بأن نقدم لك ازهارا اكثر جدارة بك ..

فقالت بسرعة وقد تضرج وجهها بحمرة الخجل :

ـ اننى لا احب شيئا قدر حبى للزهور ..

فقال دوروك وهو ينظر اليها فى دهشة :

ـ حسنا .. اننا سنجنى توا اكاليل الغار من بلادك ونقدمها هدية لك ..

فقالت مارى :

ـ آه ! اذا كنت تعنى بولندا ياسيدى الماريشال ؛ فهى باقة الازهار التى نطمع فيها جميعا ..

وعندما غادر نابوليون المائدة ، اقترب منها وقد بدت في عينيه نظرة ملتهبة ، ثم أمسك بيدها وضغط عليها في عنف ، وقال بصوت منخفض : « كلا !.. كلا .. ان هاتين العينين الجميلتين الحنونين ، وهذا العبير الطيب الذى يشع منهما ، وهذا السحر ، وتلك الجاذبية ..كل ذلك خليق بأن يجعل منك أكثر النساء ليونة ورقة ،بدلا من أن تتمتعى بتعذيبى هكذا .. »

وانطلق نابوليون فى طريقه بعد هذه الكلمات القليلة يتبعه المدعوون .. أما هى ، فقد ذهبت مع سيدة أخرى الى حيث يقف بونياتوفسكى . وأحاط بها جمع كبير من الضيوف .. وقال لها بعضهم : « انه لم يكن ينظر الا اليك .. لقد كان هذا واضحا تماما ! »

وفجأة ، ظهر دوروك .. وقال لها فى توسل وهو يجلس الى جوارها ويضع خطابا على ركبتيها :

ـ هل تستطيعين ياسيدتى أن ترفضى طلب من لم يرفض له احد طلبا قط ؟.. ان مجده محاط بالاحزان، وعليك يتوقف تبديد هذا الحزن .. لو هيأت له بضع لحظات من السعادة ..

وأخفت مارى وجهها بين يديها .. ولكن جارتها تدخلت قائلة وهى تنظر الى دوروك :

ـ ان الصمت يعنى القبول ياسيدى الماريشال ... طمئن صاحب الجلالة على أن العصفور البرى الجميل سيكون حالا رهن مشيئته

كان الجميع يتدخلون فى هذه المشكلة .. وكانت هذه السيدة الاخيرة فى خدمة أتباع الكونت بونياتوفسكى ومدام فوبان ، وأيضا صديقة حميمة ل « مارى » على الرغم من ضعف أخلاقها .. ومع ذلك صاحت الكونتيسة

الشابة قائلة :

ــ ماذا تقولين بحق السماء ؟

فقالت الجارة :

ــ أقول ماكان يجب عليك أن تقوليه بنفسك .. انني بولندية مخلصة ، وأعتقد ــ مثل كل العقلاء المخلصين ــ أننا مهما فعلنا من أجل نابوليـــون فاننا لن نوفيـــه حقه .. !

واضاف دوروك يقول وهو ينهض منصرفا :

ــ اتوسل اليك ياسيدتى .. وأتعشم انك ستكونين أكثر رضا ، بعد أن تقرئى هذه الرسالة ..

وفتحت مارى الخطاب ، فوجدت فيه مايلى :

« هناك لحظات يشعر فيها المرء بأن المجد عبء ثقيل على كاهله .. فكيف ترفضين ارضاء خاجة ماحة للقلب الذى ينوء باعتبارات عليا تشل أعنف الرغبات ؟ آه ! لو أنك تريدين ..! انك وحدك تستطيعين رفع حواجــز الكلفة التى تفصل بيننا ، وسيسهل لك صديقى دوروك كل شيء .. آه ! تعالى ! وسوف تنفذ جميع رغباتك ، وسيكون وطنك أغلى عندى حينمـــا ترحمــين قلبى المسكين »

وجعلها هــذا الخطاب الغريب تقـــول آخر الامر : « حسنا .. افعلوا بى ماتشاءون ! »

***

وفى المساء ، فيما بين الساعة العاشرة والحـــادية عشرة ، سمعت مارى على باب بيتها طرقا متفقا عليه ، فقالت لها صديقتها :

ــ هيا .. خذى هذه القبعة ذات الشبكة ، والتفى جيدا بهذا المعطف . انهم ينتظرونك عند ناصية الشارع ،

وقد أعدوا كل شيء بحيث لايجرح احساسك الرقيق.. هيا اتبعيني اذن ..

كانت العربة تنتظر وبداخلها دوروك .. وركبت ماري وماهى الا دقائق معدودات ، حتى كانت تجلس فى مقعد وثير ونابوليون يجثو عند قدميها .. ومع ذلك كانت تبكى فى حرقة ..!

وقال لها نابوليون :

ـ انك تكرهينني اذن .. لاشك أنني أسبب لك الفزع .. هل تحبين شخصا أسعد حظا منى ؟ ..آه!.. هيا تكلمى ! .. تكلمى ..

فقالت :

ـ كلا ! .. ليس الامر كذلك !.. انني أخجل منك ، ومن نفسى !

وانبرى نابوليون يعطيها درسا فى الاخلاق على طريقته الخاصة ، وحاول أن يقنعها .. واخيرا قال لها :

ـ ياملاكى العزيز ... هل يمكن أن تخجلى من عمل طيب ؟ انك تمنحينني السعادة !.. انها لحظة من السرور !.. هل تعتقدين أنى سعيد أنا الذى يحسدنى الجميع ؟.. الا يرضيك أننى هنا تحت قدميك أستجدى حبك وأتوسل الى قلبك الصغير ..؟اننى واثق من انه ملك لشخص آخر ، والا لما بكيت هكذا فى حرقة ..ولكن الامر لدى سواء مادمت أرى وجهك الجميل ..

وحاول أن ينتزع منها منديلها الصغير الذى كانت تخفى به عينيها ، فقالت :

ـ ارحمنى يامولاى !

فقال :

ـ لقد قيل لى انك عصفور برى .. يالك من ضحية

مسكينة ! فماذا عن زوجك العجوز ؟ .. كيف توصل اليك .. ؟

وما أن سمعته مارى يعرض بزوجها ، حتى صاحت بصوت يختنق بالدموع ، ونهضت من مكانها تريدالفرار. وكتبت تصف ذلك فيما بعد : « أحسست بأن الفخنجر حاد تطعننى فى قلبى .. فقد كانت كل جريمتى تكمن فى اسم زوجى الذى ذكرنى به .. وبدت لى هذه الجريمة واضحة بكل بشاعتها .. ! »

ومكث نابوليون ذاهلا لتصرفها ، ساكنا لا يأتى بحركة .. ولكنه صاح يسألها حينما رآها تتجه ناحية الباب :

ـ انك اذن تكرهيننى حقا ؟.. هل أثير احساسا بشعا فى نفسك الى هذه الدرجة ؟!..

فقالت وقد طفرت الدموع من عينيها :

ـ آه ! .. يا للسماء ! .. هل تستطيع أى بولندية أن تكرهك ؟ كلا ، كلا .. اننى معجبة بك وأحبك ... فأنت السند الوحيد لأعز آمالنا وأغلاها .. لقد عبرت لك عن ذلك فى مدينة بلونى ، ولم تغادر صورتك خيالى منذ ذلك الحين .. لقد صليت للسماء من اجلك ... آه ! .. لماذا أعجز عن أن أصور لك حقيقة المشاعر المتصارعة فى نفسى ؟!

وأضافت تقول وقد تضاعفت دموعها :

ـ ولكن صدى هذا الاسم الذى نطقت به يتردد هنا فى أعماق روحى كأنه الندم مجسما ..!

وأعادها نابوليون الى مكانها ، ثم قال :

ـ حسنا .. بما أنك لا تكرهيننى ، فانصتى الى .. هل استسلمت بكل ارادتك لمن تحملين اسمه ؟..

ولم تجب ماري ، فأضاف يقول :

ــ هل قبلت أن تربطي مصيرك بمصيره حبا في الثروة أو الالقاب أو في اي شيء آخر ؟

فاندفعت تقول في حماس :

ــ كلا ! .. آه ! .. يا الهي العظيم ! .. انني لم اعرف قط حب الثروة ..

ــ اجيبي عن أسئلتي .. فلابد أن يكون هناك سبب غريب كي تتزوج شابة نضرة موفورة الجمال من شيخ هرم يكاد يبلغ الثمانين .. فاذا لم تكن الثروة أوالالقاب سببا في هذا الزواج ، فما الداعي لذلك اذن ؟

فقالت وهي تنشج بالبكاء :

ــ لقد أرادت والدتي ذلك !

ــ آه ! .. لقد فهمت ! .. وانت الآن تندمين ؟

ــ يامولاي .. ان من يجمعهما الخالق ــ عن طريق الزواج ــ لايصح أن يفرقهما انسان .. لقد قال ذلك أعظم المشرعين ..

وضحك نابوليون ، وقد أثار اهتمامه هذا الكلام .. انه سيقول لها فيما بعد حين يتذكر هذا اللقاء : « هل تعرفين أنه لولا وجهك الطاهر ، والدموع الغزيرة التي كانت تنهمر على خديك ، لما صدقت كلامك .. بل ولاعتقدت انك امراة لعوب تحاول التغرير بي ؟ »

وسألها نابوليون عن تربيتها الاولى ، وعن حياتها في الريف ، وعن اسمها الذى أطلق عليها عند تعميدها ..

وفي الساعة الثانية ، سمعا طرقا على الباب ..وصاح نابوليون قائلا :

ــ ماذا ؟ .. أترحلين بمثل هذه السرعة ؟.. حسنا يايمامتي الجميلة التي تستحق كل عطف .. جففي

دموعك واذهبى لتستريحى ولا تخشى النسر(١) بعـــد ذلك . فكل قوته وهو الى جانبك تصبح حبا خالصا .. انه حب يهدف الى اجتذاب قلبك قبل كل شيء ... انك ستحبينه آخر الامر .. هل تسمعينني جيدا ؟

وعاونها على ارتداء معطفها ورافقها حتى الباب ، وهنا اوقفها لحظة أخرى .. وقال وهو يمسك بمقبض الباب:

ـ عديني بأنك ستعودين غدا ، والا فلن أدعك تخرجين واستولى عليك عنوة .. آه ! فيم يهمنى ماســـيقول الناس عنى آخر الامر ؟ .. انك بالنسبة لقلبى أثمن واعز شيء ارغب فى ان اغزوه !

ووعدته بذلك ..

وأوصلها دوروك الى منزلها حيث يقيم زوجهـــا فاليفسكى . ووعدت دوروك بأن تتناول طعام العشاء مع نابوليون فى اليوم التالى ..

***

ولما استيقظت فى اليوم التالى ، تلقت من نابوليون خطابا وعلبة مغلقـــة . وحينما فتحت العلبـــة ، وجدت بداخلها عقدا من الماس وتاجا مرصعا بالجواهر ، فالقت « بهذه المجوهرات بعيدا تريد أن تحطمها » .. وفتحت الخطاب وقرات به مايلى :

« مارى .. ياحبيبتى الحلوة .. ان أول من افــكر فيه أنت .. واول من ارغب فى رؤيتـــه أنت .. انك ستعودين ، اليس كذلك ؟ لقد أعطيتنى وعدا بذلك ،والا فسيطير النسر اليك !

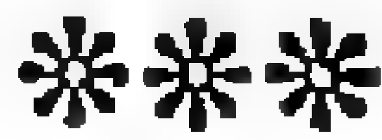
---

(١) اسم الكناية الذى اشتهر به نابوليون

« انني سأراك على العشاء .. لقد أخبرنى صديقى دوروك بذلك

«فتنازلى اذن وتقبلى هذه الباقة من الزهور ، واجعليها رباطا خفيا يربط بيننا وسط هؤلاء الناس الذين يحيطون بنا .. اننا نستطيع عن طريقها أن نفهم بعضنا بعضا حينما نكون جالسين معهم . فحينما أضع يدى على قلبى ستعرفين حينئذ انني مشغول بحبك .. وسوف تردين على بأن تلمسى بيدك جواهرك هذه ..

« بادليني الحب أيتها الحبيبة اللطيفة .. وأتمنى الا تبارح يدك باقة جواهرك أبدا »



وتوجهت ماري الى حفل العشاء دون أن تتحلى بهدية نابوليون .. فثار ثورة عنيفة .. وحينئذ وضعت يدها ـ بغية تهدئته ـ على المكان الذى كان من المفروض أن يشغله عقد الماس . ولما رآها تفعل ذلك هدأ غضبه بعض الشيء ، ثم لم يلبث كل شيء أن سار على ما يرام ..

وبعد الانتهاء من تناول العشاء ،كانت ماري فى غرفة الامبراطور .. وتحدث معها نابوليون ـ فى بادىء الامر ـ حديثا طويلا .. وكان غاضبا الى درجة انه ألقى بساعته الثمينة على الارض وحطمها بنعل حذائه . واستولى الذعر على ماري حينما سمعته يقول انه سيحطم بولندا هكذا ، وبذلك يمحو اسمها ، وتتبدد جميع آمال شعبها، اذا ما رفضت ماري ان تمنحه قلبها وان تقبل حبه !

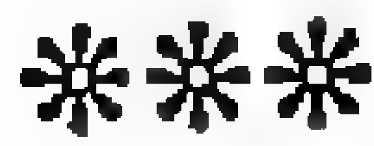
وكتبت ماري تصف هذا المنظر الاخير :

« لنسدل الستار على هذا المنظر الذى أريد أن أمحوه من ذاكرتي فى مقابل دمي وحياتي .. انكم تعرفون ان هذا الرجل العجيب كان بركانا ثائرا .. لقد كانت عاطفة

الطموح تسيطر عليه وتسيره .. وكانت عاطفة الحب عنده عنيفة جدا برغم انها كانت قصيرة الامد .. »

أما عن استسلامها لنابوليون ، فهناك روايتان حول هذا الموضوع ، الاولى تقول فيها مارى :

« ولم أعد أستطيع التراجع ، واضطررت الى مواصلة السير فى هذا الطريق الوعر الذى دفعنى اليه حماسى الزائد .. ومن ثم كانت التضحية أمرا مفروغا منه » . اما الرواية الاخرى فتقرر أن مارى قد فقدت وعيها من شدة الخوف أثناء هذا المنظر الدرامى الذى مثلهنابوليون أمامها ، فانتهز الفرصة واعتدى عليها .. وعلى اية حال، كانت النتيجة واحدة .. ولم يكن أمامها — على حد قولها — الا ان تستمر .. !



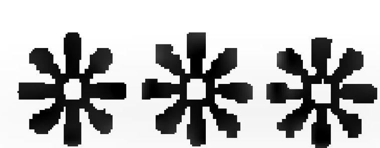
وأضافت مارى تقول فى مذكراتها :

« وأصبحت زياراتى له يومية منذ ذلك الحين .. »
ولكن أصحاب الرواية الثانية يقررون أنها لم تغادر بيت نابوليون منذ هذه الليلة والراجح ان هذه الرواية الاخيرة هى الصحيحة ، اذ لم يكن فى وسع نابوليون ان يطلق سراح هذهالزوجة — تحتسمع وابرسووبصرها — بعد أن انتزعها هكذا من زوجها وطفلها .. فكر طويلا.. وعلى أية حال ، كان عليه أن يحاول اصلاح ما أفسد .. ولكن وا أسفاه !.. فانه برغم الكرم العظيم الذىسيغمرها به لن يستطيع أن يمحو ذلك الخطأ الذى ارتكبه معها ، ولا العذاب الذى تردت فيه هذه السيدة البولندية الشابة

وكان الحديث يبدأ بينهما كل يوم عن بولندا ،وسرعان

ما يتحول هذا الحديث الى أشياء تافهة .. ولاحظت ماري ميل نابوليون لمعرفة « الاشياء الصغيرة » . فكان يحب مثلا ان يستمع الى شائعات الصالونات ، وان يعرف أسرار البيوت والعائلات . وكتبت فى ذلك تقول :

« لم تكن الحياة الخاصة لاى شخص خافية عليه .. وكثيرا ما أثار فى نفسي الدهشة بذكر تفاصيل كنت أجهلها تماما عن الاشخاص الذين تربطهم به علاقة . وكنت أمزح معه بسبب هذا الميل ، وأقول له ان احدا لن يصدق قط ان اكبر رجل فى عصره يسلى نفسه بمثل هذه الاشياء التافهة ! »



وتنهى مارى اعترافها بوصف المشهد الذى حدث بينه وبينها حين صرح لها فجاة ذات يوم بانه سيرحل .. تقول مارى :

« لقد ذهلت وانهرت تماما حين أخبرنى صاحب الجلالة بأنه راحل .. فقد قال يخاطبنى فى ذلك اليوم :

ـ اننى سأرحل غدا ياماري .. فهناك مسئوليات جسيمة تنتظرنى .. فأنا مدعو لدرء العواصف التى توشك ان تهب على بلادي .. فهل ستحرميننى من سحر وجودك الى جانبى ؟ .. الست شيئا يذكر بالنسبة لك ؟

وانهمرت فى البكاء وكدت أصيح قائلة :

ـ انك ترحل دون ان تفعل لنا اى شيء !

ولكننى لم استطع ان اقول الا هذه الكلمات :

ـ ماذا سيصبح من امرى يا الهى العظيم ؟!

فقال محاولا أن يطمئننى :

ـ انك ستأتين الى باريس يا حبيبتى .. وساجعل من دوروك وصيا عليك .. انه سيرعى مصالحك ، ويمكنك ان

تلجئي اليه فى جميع شئونك . وانا واثق من انه سينفذ لك كل طلباتك .. الا اذا طلبت شيئا مستحيلا !

وكررت له أننى ليس لى الا رغبة واحدة : ان يرد الينا وطننا !

قلت :

ـ لن تستطيع كل كنوز العالم ان ترضينى او أن ترفع من احترامى لنفسى ..

فقـال :

ـ كلا يا مارى .. ان الامور لن تسير هـكذا ، فانا اعرف انك تستطيعين العيش بدونى ، وأن قلبـك ليس ملكا لى . نعم ، انك لا تحبيننى يا مارى ! اننى أعـرف ذلك لانك صريحة ولا تحبين الرياء . ومن اجـل ذلك تجديننى مغرما بك أكثر من اية امرأة اخرى .. انك طيبة ، جميلة ، لك قلب طاهر نبيل ، فهل تقدرين على حرمانى من هذه اللحظات السعيدة التى امضيها الى جوارك كل يوم ؟ .. آه ! .. اننى لن اعرف السعادة الا عن طريقك . ومع ذلك ، يظن الناس أننى اسعد رجل على ظهر الارض!

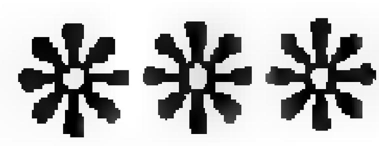
« وحرك كلامه هذا الشفقة فى قلبى فابتسمت ابتسامة حزينة .. ثم ألقيت بنفسى بين ذراعيه ووعدته بـكل ما يريد »

وتضيف مارى فى مذكراتها :

« ورحل نابوليون ليواجه المشاكل التى هبت فى وجهه : الحصار القارى ، ومشكلة حرب أسبانيا ، والمؤامرات الانجليزية التى يجب أن يكتشفها ، والنمسا التى يجب أن تقمع .. تلك هى المشاكل الكبرى التى كانت تشغل باله حينذاك »

ونحب هنا أن نقول لمدام فاليفسكا : توقفى قليلا ! ..
ذلك ان اختلاقها للاحداث يبدو هنا واضحا .. فحقيقة الامر ان نابوليون لم يكن يحارب اسبانيا أو يقمع النمسا فى عام ١٨٠٧ ، بل كان أمامه الروس الذين لم يكن قد هزمهم بعد . وهو سيفشل فى أول محاولة لهزيمتهم فى معركة ايلو ، وستتلو ذلك فترة طويلة من الانتظار يعقبها انتصاره عليهم فى معركة فريدلاند التى تبعتها معاهدة تليست . ولم يعد نابوليون الى باريس الا بعدابرام معاهدة السلام هذه ، ولم تكن عودته بسبب موقف النمساويين والاسبان كما تدعى مارى !

ولكن مارى كانت تريد اخفاء حقيقة انها لم تترك نابوليون اثناء اقامته فى وارسو طيلة شهر يناير عام ١٨٠٧ . وقد حدثت معارك ايلو فى شهر فبراير ، وهى المعارك التى أرغمته على ترك اقامته المفضلة فى العاصمة البولندية فى ٣٠ يناير عام ١٨٠٧



ورحلت مارى فاليفسكا فى نفس الوقت ، ولكن فى اتجاه آخر .. رحلت الى فيينا انتظارا لان يدعوها نابوليون لتكون الى جواره من جديد .. وكان السفير الفرنسى فى فيينا تحت تصرفها فى كل شيء ..

وبعد معركة أوسترو القصيرة التى لم تكن حاسمة ، ذهب نابوليون الى قصر فنكنشتاين حيث اقام حتى السادس من يوليو انتظارا لحرب جديدة مع الروس . وتلقت منه مارى الخطاب التالى المؤرخ من مدينة ايلو فى ٩ فبراير ، اى فى اليوم التالى للمعركة :

« يا صديقتى الجميلة .. انك تعرفين عن الاحداث اكثر مما أستطيع أن اقول فى هذا الخطاب . لقد استغرقت

المعركة مدة يومين مكثنا خلالهما مسيطرين على ميدان القتال .. ان قلبى معك ، واذا كان الامر يتعلق بقلبى فحسب ، فانك لاشك ستصبحين مواطنة فى دولة حرة..

« هل تقاسين مثلما أقاسي بسبب فراقنا ؟ .. اننى اقاسي لدرجة أننى ارغب فى أن تعودى الى وارسو ،فأنت بعيدة منى اكثر من الـلازم .. أحبينى يا عزيزتى الجميلة .. وكونى واثقة من ناحيتى .. »

***

وأطاعت مارى وعادت الى بولندا حيث اعتكفت مع والدتها فى بلدة كيرنوزيا ـ مسقط راسها ـ وكان هناك أيضا لوماردا ضابط اركان حرب نابوليون الذى كان شاهدا على عقد زواجه من جوزيفين . وكان لوماردا مكلفا بالسهر على راحة مارى .. وكان دوروك دائم التنقل بين مركز القيادة العامة وبيت مارى فى كيرنوزيا .. واخيرا لحقت مارى بنابوليون وعاشرته معاشرة الازواج فى قصر فنكنشتاين .. ولكن سرعان ما فرقت بينهما العمليات العسكرية مرة أخرى ..

وفى ٢٦ مايو عام ١٨٠٧ ، كتب اليها نابوليون يقول :

« لقد استسلم لنا حصن دانزج أيتها الصديقة الجميلة .. اننى اعرف انك ستنشعرين بالسرور لهذا الخبر .واحب ان تعلمى اننى لم أنس وعدى لك .. فكونى سعيدة وهادئة لان السحب ستنقشع ، وسيرى كل منا الآخر فى القريب العاجل .. تلك هى أعز أمنية عندى . ن »

وقبل انتصاره فى معركة فريدلاند ، كان يقيم فى مدينة هايلزبرج ، فكتب اليها فى ١٢ يونيو عام ١٨٠٧ يقول :

« ياصديقتي اللطيفة .. ان الامور تسير كلها كما سبق أن تنبأت . اننا نطارد جيوش الاعداء .. وتبدى الفرقة البولندية من ضروب الحماس والشجاعة ما ليس له نظير فى التاريخ . ان لقاءنا الذى أتمناه من كل قلبى بات وشيكا .. وحينئذ يستطيع كل منا ان يعيش من أجل الآخر .. حبيبك : ن »

وبعد الانتصار ، أقام نابوليون فى مدينة تليست فى المدة من ١٩ يونيو الى ٩ يوليو . ومن تليست كتب بعدها مرة اخرى بأن يقابلها : « أننى سأرتب الامر بحيث أراك فى مكان ما .. كونى واثقة من ذلك »

ولكنه لم يرتب الامر كما ذكر ، ويبدو انه عاد الى فرنسا دون ان يراها مرة ثانية . ومن قصر سان كللوبجوار باريس ، ارسل اليها الخطاب التالى المؤرخ فى ٢٩ يوليو عام ١٨٠٧ :

« عزيزتى الجميلة مارى .. فى وسعك ، انت التى تحبين بلادك ، أن تقدرى مدى سرورى بعودتى الى فرنسا بعد أن غبت عنها عاما كاملا .. والشىء الوحيد الذى يقلل من سرورى هذا انك لست معى هنا .. ولكنك فى قلبى ..

« ان عيد ميلادنا يقع فى أعياد السيدة مريم العذراء ، وهو سبب خليق بأن يجمع بين قلبينا فى ذلك اليوم .. الى اللقاء يا صديقتى الجميلة . انك ستلحقين بى حينما تسمح الظروف بذلك ، وسيكون هذا فى وقت قريب . واخيرا ثقى بعواطفى التى لا تهدأ .. »

ونستطيع أن نستنتج من هذا الخطاب أن مارى هى التى تمنت أن تتبعه فكتب اليها الخطاب السابق يطمئنها ،

ولكنه فى نفس الوقت لم يكن مشغوفا كل الشغفبالاجتماع بها من جديد

***

ولم يستدعها نابوليون الا فى أوائل عام ١٨٠٨ ثم اعادها الى بولندا فى بداية شهر ابريل . وكان يكتب اليها من مدينة بوردو ، واورفورت ، واسبانيا ، ويرد كذلك على رسائلها . .وكانت تذكره دائما بوعده لها . وأثناء ذلك اغدق نابوليون من كرمه على شقيقها تيودور لاكزينسكى ، فمنحه لقب كونت ورقاه فى رتبالجيش . ومن اورفورت كتب اليها يطمئنها فى ٢ اكتوبر عام ١٨٠٨ ، فقد كانت تشعر بالخوف على مستقبل وطنها ، وتفكر فيما عسىان ينتج عن اللقاء المنتظر بين نابوليون وقيصر روسيا . وكتب اليها يقول :

« لقد قرات خطابك بأمعان ياصديقتى الجميلة ، وانا اهتم كثيرا بكل ما تقولين عنظروف بولندا الحالية . . فكونى على ثقة من ان شيئا لم يتغيربخصوص مستقبل هذه البلاد . . ولا احد يعارض هنا فى ذلك . لا تعتذرى لانك لم تكتبى لى بما فيه الكفاية ، بل لعل من الحكمة ان تتصرفى هكذا لاننى دائم التنقل . .وفيم تهم الكلمات؟ . . ان جسدينا فقط بعيدان . وبرغم اننى اقاسى من ذلك، الا اننى واثق من أنك لا تهتمين بما هو جسدى . لقد اعطيتنى روحك ، وروحى ملك لك . . ثقى بعطفى الابدى . . ن »

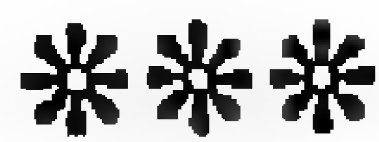
وفى نهاية هذا العام ، كان نابوليون فى اسبانيا . . ولم يعد الى فرنسا الا فى النصف الثانى من شهر يناير عام ١٨٠٩ . وكان يكتب اليها كثيرا من اسبانيا واعلن لها فى احدى رسائله الاخيرة من هناك نبأ انتصار جيشه فى معركة

سوموسييرا ، حيث ضحى الفرسان البولنـــديون الذين انضموا للحرس تضحيات تفيض بشتى ضروب البطولة :

« يا صغيرتى مارى .. انك تفكرين كثيرا ، وهذا شيء قبيح جدا .. وايضا تنصستين الى أناس يحسن بهم ان يكتفوا بالرقص فى بولندا بدلا من ان يهتموا بشئون هذا البلد . لقد ضيعت من وقتى ربع ساعة كى أشرح لك أن مايبدو فى الظاهر اجراء غير ملائم ، ستنتج عنه فيما بعد مزايا عظيمة .. أعيدى قراءة هذا الخطاب وسوف تفهمين كل شيء »

« واخيرا اشكرك لتهنئتك اياى على انتصـــارى فى سوموسييرا .. ويمكنك ان تفخـــرى بمواطنيك الـــذين سطروا صفحة مجيدة من صفحات التاريخ .. سأكون قريبا فى باريس ، واذا حدث وبقيت هنا مدة أطول،فربما تستطيعين الحضور .. كل أفكارى لك .. ن »

ويتكرر نفس الشيء ، فهو لا يرغب ان تلحق به..وعلى العكس من ذلك بدأت هى من ناحيتها تستعد للســـــفر بحماس كبير . وهاهى ذى تكتب فى مذكراتهـــا فتقول : « سأعود الى فرنسا ! .. اننى استعد للسفر بسرعـــة ، ولدى مشغوليات كثيرة ! .. » ولكنها لم تسافر ، فقد بدأت حرب رابعة بين نابوليون والنمسا ، ولن يقدر لها أن تراه الا فى فيينا



وكان الامير بونياتوفسكى ينهرها احيانا لانها لم تكن تكف عن التدخل فى سياسة بولندا . وتوترت علاقتهـــا ببونياتوفسكى .. ولا يستطيع المرء ان يغفل هذه العلاقة اذا ما أراد معرفة الحقيقة حول بدايةعلاقةمارى فاليفسكا

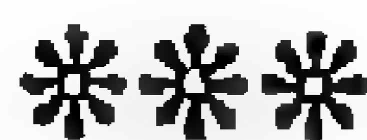
بنابوليون . وقد سبق أن ذكرنا أن مسئولية بوتياتوفسكى فى ذلك ضئيلة للغاية ، ولكن مارى حاولت أن تحملـــله مسئولية جسيمة ..

واحست مارى بصدمة لعدم سفرها الى فرنسا .. فنابوليون لم يستدعها كما سبق أن وعـــدها ، بل انه بالاحرى أمرها بأن تظل فى بلدها .. ولما شكت من ذلك ، كتب اليهـــا من قصر شونبرون بالنمسا فى ١٤ مايو عام ١٨٠٩ يقول :

« لقد وصلتك أخبارى بانتظام ، فلماذا كان يجب ان اخبرك انه لا ينبغى ان تحضرى ؟ .. الم يكن ذلك كفيلا بأن يسبب لك الالم ؟ ..

« ان نداءاتك العديدة هذه طبيعية بالنسبـــة الى ، ومعلوماتك تفيدنى كثيرا . وأعتقد أنك كنت شجاعة جدا باقدامك على الذهاب الى بونياتوفسكى فى هذه الظروف .. فصحيح أن الرئيس المسئول لا ينبغى أن يسأله أحد عما يفعل . ويبدو لى أن هذا ما أراد أن يقوله لك ..

فليلتف البولنديون اذن حول علم بلادهم ، وليكفوا عن خلافاتهم ، وهكذا يظهر نصيبهم فى تحرير انفسهم .. ن»



فى ذلك الوقت ، كان النمساويون يثيرون القـــلاقل فى وجه نابوليون بهجومهم عليه فى بولندا ، فتبعت مارى الجيش البولندى الصغير الذى احتل اقليم جاليسيا بأكمله لنضل مؤازرة نابوليون . وفى مدينة كراكوف ، تلقت منه خطابا من قصر شونبرون مؤرخا فى ٢٠ يونيو :

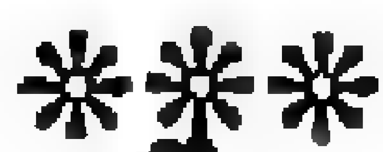
« لقد سررت ــ كعـــادتى دائما ــ بخطابك . ولســت اوافقك تماما على تتبعك للجيش حتى كراكوف .. ولكننى لا استطيع أن ألومك على ذلك ..

» ولقد تحسنت مشكلة بولندا .. ويمكننى أن أفهم ما شعرت به من قلق .. ولذا فقد آثرت أن أعمل .. ألم يكن هذا خيرا من ان اكتفي بأن اغدق عليك المواســـاة ؟ ولا يجب ان تشكرينى ، فأنا أحب بلادك واقدر عددا من مواطنيك حق قدرهم ..

« ان الامر يتطلب أكثر من مجرد الاستيلاء على فيينا لانهاء الحملة .. وحينما انتهى من ذلك ، ســـأعد الامر بحيث أكون الى جوارك أيتها الصديقة الجميلة . انني أتحرق شوقا الى رؤيتك . واذا ما حدث ذلك فى قصر شونبرون فاننا سنتمتع معا بسحر حدائقه الرائعة ، وننسى هذه الايام الكئيبة .. ليكن لديك الصبر والثقة .. »

ولما تلقت مارى خطابه المؤرخ فى ١٤ مايو ، كانت قد كتبت اليه برغبتها فى اللحاق به .. وكانت من السذاجة بحيث اعتقدت ان استيلاءه على فيينا يعنى القضاء على النمسا كلها قضاء مبرما . ومن هنا كان رده السابق الذى جاء فيه ان الامر يتطلب اكثر من مجرد الاستيلاء على فيينا لانهاء الحملة ..

وفى ٦ يوليو ، أحرز نابوليون نصرا اكيدا على النمســا فى معركة واجرام . وحينئذ يعترض على ذهابها اليه ..



ووصلت مارى الى النمسا فى نهاية شهر يوليو ، وعاشرها نابوليون معاشرة الازواج حتى شهر أكتوبر . ويعتبر هذا اللقاء من الاهمية بمكان .. ذلك أن مارى قد حملت منه بمجرد حضورها . واحضر لها نابوليون طبيبـــه الاول كوفيزار خصيصا من باريس ليشرف على صـــحتها .. وكان هذا الحمل سببا فى تعقيد الموقف تعقيدا كبيرا ، فقد كان الكونت فاليفسكى زوج مارى لا يزال على قيد الحياة .

وكان لابد من أن تضع ماري فاليفسكا مولودها في بولندا كي ينتسب الى آل فاليفسكي .. ولم يخجل نابوليون من ابداء رغبته في نسبة الطفل الى النبيل المجوز ..

وألحت عليه ماري كي يأذن لها بأن ترافقه الى باريس .. ولكنه ظل جامد القلب متمسكا برأيه في أن تعود الى وارسو ..

وكان غرض نابوليون واضحا من اصراره على رحيلها ، فهو في فرنسا يستطيع ان يفعل ما يشاء ، وان يجعل من اى رغبة له قانونا مطاعا .. ولكن حينما يتعلق الامر بسيدة بولندية ، يصبح الامر اكثر صعوبة وتعقيدا لانها من جنسية مختلفة . ومن ناحية أخرى ، لو فرضنا ان نابوليون وافق على منح اسمه لهذا المولود ، فهو سيظل على الدوام ابنا غير شرعي . والشيء الذى يبعث على الدهشة حقا ، أن ماري لم تتردد في موافقته على الرحيل

***

وعادت ماري الى بولندا ، ولكنها لم تلبث أن وصلت فجأة الى باريس حيث أقامت في منزل بشارع هوساى في حى نوتردام دى لوريت . وكان نابوليون يذهب لزيارتها في هذا المنزل ، ويقدم لها الهدايا ، ويصرح بأن المولود سيدعى ألكسندر اذا كان ذكرا ، واوجستين اذا كان أنثى .. !

وفي اليوم العاشر من مارس عام ١٨١٠ ، تلقت ماري خطابا من زوجها جاء فيه :

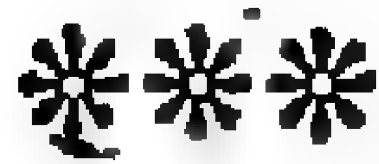
« زوجتي العزيزة .. لقد اصبح قصر فاليفس حملا ثقيلا على كاهلي ، وصحتي وسني يمنعانني من القيام بأى نشاط ، فأتيت الى هذا القصر مرة أخيرة كي أوقع على عقد ملكيته لابني الاكبر .. وأنا أنصحك بأن تتفاهمي

معه بخصوص الاجراءات التى يجب اتباعها بشأن الطفل الذى تنتظرينه . وستكون هذه الاجراءات أكثر سهولة اذا ما ولد فاليفسكى الصغير هذا فى قصر فاليفس .. ذلك هو رأى ابنى الاكبر ، وهو الذى أشار أيضا بأن أكتب اليك . اننى أفعل ذلك وأنا أعى تماما أنى أقوم بواجبى ، وادعو الله أن يحفظك ويباركك .

أنستاز فاليفسكى »

يا له من شيخ رائع نبيل ! .. ويالها من رحمة ونكران للذات !

واعدت مارى حقائبها على الفور ، ويممت شطر بولندا .. وهناك ، وضعت مولودها الكسندر فاليفسكى فى الرابع من مايو عام ١٨١٠

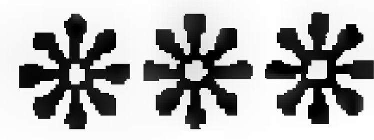


وعادت مارى الى باريس بعد ذلك بعدة أشهر حيث أقامت اولا فى شارع هوساى ، ثم منحها نابوليون بيتا خاصا فى شارع لافيكتوار ، وهو الشارع الذى اختاره لسكنى عشيقاته .. وعلى الرغم من انه كان قد طلق جوزيفين فى نهاية عام ١٨٠٩ ، الا انه لم يتزوج من مارى فاليفسكا كما كانت تتوقع ، وانما تزوج من الارشيدوقة النمساوية مارى لويز .

وهكذا انتهت مارى فاليفسكا من حياته ! .. فقد كانت الشهور تمر دون أن يفكر فى الذهاب الى رؤيتها ، وهو الذى كان فيما مضى لا يستطيع ان يعمل دون أن تكون الى جواره ليل نهار !.. وذات مرة ، ذهبت اليه لترجو منه أن يتفضل بزيارتها ، فوعدها بذلك .. ولكنه لم يذهب اليها الا بعد ثلاثة اشهر !

ولكنه لم يكن يبخل عليها بالمال .. وكان دوروك تحت

تصرفها على الدوام ، يدفع لها ثمن مشترياتها وزينتها ، ويسلمها فى بداية كل شهر ثلاثة ملايين من الفرنكات،وهو مبلغ يعادل الآن ثلاثة آلاف من الجنيهـــات .. وكان مسموحا لها بأن تدخل الى البلاط وان تتصل ببقيـــة عشيقات بونابرت



وفى عام ١٨١٢ ، حينما كان نابوليون يقوم بحملته فى الجبهة الشرقية وقد اوشك ان يهاجم الروسيا ، سبقته مارى فاليفسكا الى بولندا مؤملة ان تعيش هناك الى جواره .. وأخيرا لحقت به فى مدينة فيينا . وكان نابوليـون لا يعترض على وجود النساء فى هيئة أركان الحرب، ويوافق على أن يصحب الجنرال معه عشيقته الى جبهة القتال.. ومع ذلك ، فقد ترك مارى حينما توغل فى الجبهة الشرقية، ولم يرسل لها خطابا واحدا طيلة مدة الحملة !

وفى شهر ديسمبر ، أنبأتها السفارة الفرنسية فى وارسو بأن نابوليون قد هزم ، ووصل سرا الى العاصمة البولندية .. وأخبروها كذلك بأنه سيعرفها أين ومتى يمكن أن تراه ..

وجاء نابوليون بعد ظهر نفس اليوم الى قصر فاليفسكى بصحبة دوروك .. وقال يخاطب مارى : « لقد كان من الضرورى أن آتى لرؤيتك واطمئنك على نفسى .. ومن ناحية أخرى أريد أن أرى هذا القصر الذى ولد فيـــه ابننا »

وقضى نابوليون شطرا من الليل فى قصر فاليفسكى . وقبيل الفجر ، جاء دوروك يقرع باب غرفة القائد الذى كان ينبغى ان يواصل رحلته فى تكتم شـــديد . وودع نابوليون الكونتيسة ، بعد ان حثها على ترك بولندا التى لم

تعد فى مأمن من الجيش الروسي الزاحف . وقال لها نابوليون : « عودى الى باريس بأسرع ما يمكن »

***

وصلت مارى الى باريس فى بداية عام ١٨١٣ .. وبدأ يتردد عليها واحد من أولئك الذين كانوا يبثونها حبهم ، وهو الجنرال أورنانو ابن خالة نابوليون . وكان أورنانو قد حصل من بونابرت على رتبة كونت وهو فى الرابعة والعشرين من عمره ، فضلا عن راتب سنوى قدره ثلاثون مليونا من الفرنكات .. وكان قد عرف مارى منذ بداية علاقتها ببونابرت ، فأحبها بدوره وكان على استعداد لان يختطفها منه

وفي ١٥ أبريل عام ١٨١٣ غادر نابوليون باريس في صحبة اورنانو .. فقد كانت حملة المانيا على وشك أن تبدأ . وذهبت مارى فى اليوم السابق للرحيل لتوديع بونابرت فى قصر سان كلو ، فوجدت صالونات القصر وقاعاته مزدحمة برجال الحاشية .. وانتظرت ساعة كاملة ، ثم جاء نابوليون وعبر لها عن دهشته لرؤيتها ، لانه كان يتوقع أن تأتى فى الليلة السابقة . واخبرته بأن احدا لم يخطرها بذلك .. وحينئذ أجابها مازحا :

ــ كلا ، انك لم تحضرى أمس لانك تعتقدين فى الخرافات .. فقد كان أمس يوافق يوم ١٣

ورجته مارى أن يكون جادا ، وان يتذكر انه على وشك أن يبلغ الاربعين من عمره . وحينئذ أجابها قائلا :

ــ اننى لم اشعر قط بأننى شاب كما اشعر الان .. وسوف يراني الجميع فى هذه الحملة ، وانا اهجم بقوة على الاعداء وأطعنهم بالسونكى !

فعقبت مارى قائلة :

ـ لقد حرم الله « الانتحار » بكل انواعه .. !

وقبلها نابوليون هى وولدها الكسندر ، ثم اذن لهما بالانصراف .. والواقع أنها لو لم تأت اليه ، لما كلف نفسه عناء الذهاب لرؤيتها قبل سفره !

ولما عادت الى منزلها « صلت من أجله وكذلك من اجل أورنانو الوسيم »

وبعد فترة من الوقت ، علمت مارى بمصرع الماريشال دوروك الذى جرح جرحا مميتا فى ٢٢ مايو عام١٩١٣ .. وكان أورنانو يكتب اليها وتبادله الرسائل ..

***

وعاد نابوليون آخر العام .. واضطرت مارى ان تطلب مقابلته مرة أخرى .. ودخلت فى هذه المرة على الرجل المحطم الذى كان يعيش شهوره الاخيرة فى الحكم . فقد انتزع منه الاعداء فى معركة ليبزيج ـ التى استغرقت يومين ـ ما اخذه منهم فى اثنتى عشرة سنة ! .. وهم غدا ، سيقومون بغزو فرنسا نفسها !

ووجدت مارى انوزنه قد زاد زيادة كبيرة ، الامر الذى ادهشها كثيرا حين وقع عليه بصرها لاول وهلة ..

وقبلها نابوليون ثم قال :

ـ كيف حال عزيزتى مارى ؟ .. وكيف حال صغيرى الكسندر ؟..

ولم تصدر منه بعد ذلك أية حركة او كلمة تنم عن حب او غرام .. بل لقد أدخل الى الغرفة ابنه الذى رزق به من زوجته النمساوية ، وذلك كى يتحاشى البقاء معها على انفراد .. وطفرت الدموع من عينى العاشقة البولندية وكان لها العذر فى ذلك .. !

وبعد عدة أسابيع ، غادر نابوليون باريس ليبدا حملة

الدفاع عن أرض فرنسا .. وفى هذه المرة ، رحل دون ان يودع أحدهما الآخر ..

كان نابوليون حينئذ يلعب بآخر ورقة فى يده .. وكان يدرك أنه سوف يفقد عرشه اذا لم ينتصر .. ولذا فقد أسرع بترتيب شئونه الخاصة ليضمن مستقبل ابنائه ، وأمر رئيس خزانته الخاصة بأن يمنح ابنه الصغير الكسندر ايرادا سنويا قدره خمسة عشر مليونا من الفرنكات

وهزم بونابرت فى نهاية شهر مارس، وبذلك بدا احتضار الامبراطورية فى قصر فونتنبلو . وقرر مجلس الشيوخ « اسقاط » نابوليون عن العرش ، ولكنه حاول ان يستبدل ذلك «بالتنازل» عن العرش .. وقبل الاعداء هذا الحل الاخير مراعاة لخاطر امبراطور النمسا والد زوجة نابوليون الثانية ، التى كان من الواجب أن يؤمن مصيرها ..

وأرادت مارى فاليفسكا أن تودع نابوليون قبل رحيله الى جزيرة البا .. ولما ذهبت الى قصر فونتنبلو أخبروها بأن نابوليون يطلب منها أن تنتظر ..

ودام انتظارها ساعة ، ثم ساعتين .. وأخيرا رحلت مع بزوغ الفجر .. ويبدو ان نابوليون خشى أن يحدث بينهما وداع عاطفى ، ففضل الا يقابلها ..

ولما ايقظوه بعد رحيلها بساعة واحدة ، التفت لمن حوله وقال فى أسف :

ــ يا للسيدة المسكينة ! .. انها لا شك ستظن انى قد نسيتها !

كان على نابوليون أن يغادر قصر فونتنبلو فى ٢٠ ابريل، فكتبت اليه مارى خطابا فى ١٥ ابريل ، وقد أجابها فى اليوم التالى يقول :

« ان مشاعرك تؤثر فى نفسى تأثيرا عنيفا ، وهى مشاعر جديرة بروحك الجميلة وقلبك الطيب ياعزيزتى .. واذا تصادف أن ذهبت الى مدينة بيزا بعد أن تنتهى من ترتيب شئونك ، فيسرنى أن أراك هنـاك ، وكذا ولدك الذى ان تتغير مشاعرى نحوه أبدا ..

« أرجو أن تكونى بصحة جيدة .. لا تحزنى ، أو تشكى لى أبدا .. ن »

***

وعادت مارى الى علاقتها مع أورنانو .. ونسى هـذا انه ابن خالة نابوليون ، وصرح لحبيبتـه بأن الرجـل العسكرى يخدم بلاده ولا يخدم حكومة من الحكومات »

وتوفى الكونت فاليفسكى ، ومع ذلك لم تتزوج مارى من أورنانو على الفور لانها لم تكن قد فقدت بعد كل أمل فى رؤية نابوليون مرة ثانية . وذهبت لرؤيته بالفعل فى جزيرة البـا ، وصحبت معهـا ابنهـا وواحـدة من شقيقاتها ..

كان ذلك فى اليوم الاول من سبتمبر .. ولمـا علم نابوليون بحضورها ، انتقـل من بورتوفيرايو الى لامادون حيث نصب خيمته واستقبلها هناك . وفى موعد العشاء، أمر بتقديم الطعام ، وأخذ يقطع اللحـم ويملأ الاطباق بنفسه وقد شاعت فى وجهه امارات البهجة والسعادة .. وكانت مارى حينذاك سـيدة جميلة فى الثلاثين ، ممتلئة القوام بعض الشيء ..

وبعد تناول العشاء اصطحبها نابوليون هى وشقيقتها الى المسكن الذى كان قد اعده لهما ، ثم عاد الى خيمته ليخلع ملابسه .. فقد كان من عادته ان يثير الالغاز حول أشياء معروفة للجميع !.. وعلى الرغم من ذلك ، كان من

السذاجة بحيث كان جميع رفاقه يرونه وهو يخرج من خيمته كل ليـــلة مرتديا « الروب دى شامبر » ليلحق بماري ولا يغادرها الا قبيل الفجر ، الامر الذى دعا احد الخدم الى ان يقول عنه : « ان أبسط الرجال وأشـــدهم ســذاجة كانوا أكثر مهـــارة من الامبراطور فى الشئون الغرامية ! »

وغادرت مارى الجزيرة بعد عدة أيام وهى تحمل معها بعض الاموال ، وعدة أوامر من نابوليون موجهة الى رجل من رجال البنــوك فى ايطاليـــا يدعى تورلونيا .. وكان نابوليون قد اقترض كثيرا من المال من خادمه مارشان ، وخادمه سان وينس . وقد أقرضه هذا الاخير ـ الذى كان يتمتع بمركز مالى متين ـ مليون فرنك تقريبا

وتوجهت مارى من جزيرة البا الى ايطاليا مباشرة كى ترتب شئونها مع مورا وتورلونيا . وقد أكد نابوليون فيما بعد ان مورا زوج شقيقته لم يبر بوعوده تجاه مارى حين تقدمت اليه لتحصل على منحتها المالية التى وهبها لها . ولكنه غير موقفه حينما علم بعودة نابوليون الى فرنسا من جزيرة البا .. فقد ارتدى مورا حينئذ زى الماريشالية وذهب ليسلم مارى صك النقود ، واعتذر لها بأن تأخير الصرف كان نتيجة اهمال بعض الوزراء . ويقال انمورا حاول ان يغازل مارى حينئذ ، كما فعل معها فى بولندامن قبل .. وعقب نابوليون على ذلك بقوله : « ان هذا العمل من جانب مورا يدل على الخسة والنذالة ، ولذا لم اطلب منه ان يشترك معى فى معركة واترلو »

وفى ١٥ سبتمبر صودرت جميع الهبـــات التى كان نابوليون قد وهبها لمارى فى مملكة نابولى ، والتى كانت تدر عليها ريعا سنويا يقدر بواحـــد وخمسين مليونا من

الفرنكات . ولكن مورا - وتعترف له مارى بالفضل فى ذلك - قد اعاد بمرسوم صادر منه بتاريخ ٣٠ نوفمبر عام ١٨١٤ جميع الهبات التى منحها نابوليون لمارى وابنهـا فى هذه المملكة . وبعد سقوط مورا عن عرش مملكة نابولى ، امتنعت حكومة نابولى عن دفع هبات نابوليون فى هذه المملكة

***

وفى فبراير عام ١٨١٥ ، طلب الجنرال اورنانو ان يصرح له بأجازة فى باريس لانه على وشك الزواج من مارى .. ولكن حدث اثناء ذلك ان غادر نابوليون جزيرة البا ونزل فى فرنسا ، وبذلك بدأت حكومة المائة يوم

واجلت مارى الزواج مرة اخرى ، وتوجهت الى قصر الايليزيه بناء على طلب نابوليون الذى بعث اليها برسول ليسألها عن اخبارها ويطلب منها ان تذهب لمقابلته فى القصر بعد قداس يوم الاحد .. واحضرت معهـا ابنها الكسندر كى يجنبها ذلك عبء تفسير سلوكهـا مـع اورنانو ..

لكن نابوليون لم يعد شيئا .. انه كان فى باريس كالمسافر التائه الذى يهيم على وجهه وهو لا يلوى على شيء .. لقد ولى سلطانه ونفوذه ، وفقد الثقة بنفسه ..

وصرعته معركة واترلو بصفة نهائية .. فهرعت مارى الى قصر ماليزون لتودعه الوداع الاخير ، وحاولت ان توقظه من سباته بقولها : « فرنسا يا نابوليون ! وعرشك! وابنك ! » .. ولكن نابوليون لم يعد يتأثر .. !

كان ذلك فى ٢٨ يونيو عام ١٨١٥ . وفى اليوم التالى، غادر نابوليون قصر ماليزون فى طريقه الى المنفى ..

وهناك فى سانت هيلانة ، كان اسم ماري فاليفسكا يتردد على شفتيه من حين لاخر . وذات يوم ، أكد لمن حوله أن مدام فاليفسكا أجمل بكثير من بوتون دى روز ملكة جمال الجزيرة

وفى ٧ سبتمبر عام ١٨١٦ ، وبعد عوائق كثيرة، تزوجت مارى من اورنانو . ولما وصل الخبر الى نابوليون فى جزيرة سانت هيلانة فى ١٨ يناير عام ١٨١٧ ، صرح بأنه يوافق على هذا الزواج . وكان تعليقه الوحيد : « انهــا ثرية ، اذ لابد أنها قد اقتصدت بعض المال .. فضــلا عن أننى قد أعطيت الكثير لولديها » . وقبيل وفاته بعدة أيام ، خاطب برتران قائلا : « يجب أن يكون الايراد السنوى لابن مدام فاليفسكا مائتى ألف فرنك »

حقا ان نابوليون كان قد أعطى الكثير .. ولذلك فقد اكتفى فى وصيته بأن أبدى رغبته فى أن يصبح ابنــه من مارى ، يوما من الايام ، فى خدمة فرنسا كواحد من رجال الجيش !

وتحطم زواج مارى فاليفســكا من الجنرال اورنانو بسرعة كبيرة .. وقصة هذا الزواج تتلخص فى التواريخ الثلاثة الاتية :

فى ٧ سبتمبر عام ١٨١٦ تم عقد الزواج .. وفى ٩ يونيو عام ١٨١٧ وضعت مارى مولودا ذكرا أســـمنه رودولف اوجست .. وفى ١١ ديســمبر عام ١٨١٧ ، توفيت مارى فاليفسكا

ويقال انها قد توفيت اثناء ولادة رودلف ، ويقال انها قضت نحبها نتيجة القلق والندم لسقطتها بين ذراعى بونابرت فى عام ١٨٠٧ .. فقد ظلت صورته على الدوام ماثلة كالشبح بينها وبين زوجها أورنانو .. شبح الندم على مالايمكن اصلاحه !



مغامرات نابوليون

بعد معركة فريدلاند

بطولة فارس

كان نابوليون قد عاد الى باريس متوجا بأكاليل الغار بعد انتصاره فى معركة فريد لاند ، وأقام فى قصر فونتنبلو فى المدة ما بين ٢١ سبتمبر و ١٦ نوفمبر عام ١٨٠٧ .. وكانت شقيقتـــه بولين تقيم معه هي وحاشيتها .. ومن بين سيدات هذه الحاشية ، كانت هناك واحدة تدعى مدام دى بارال ، اشتهرت باسم زوويه . وكان من عادة شقيقات نابوليون ، وخاصة بولين ، ان يدفعن بين ذراعيه بسيدات من حاشيتهن ، او ممن يعملن فى خدمتهن !

ولدت بولين كونستانس زوويه فى عام ١٧٨٠ . وكانت فى الثالثة والعشرين من عمرها حين تزوجت من الكونت دى بارال الذى كان فى الستين. ولما كان هذا الكونت من اقرباء جوزيفين ، فقد كان يتردد بالطبع على البـلاط . وحينما تكونت حاشية بولين شقيقة نابوليون ، استطاع الكونت ان يحصل على موافقة بأن تكون زوجته وصيفة شرف فى هذه الحاشية ..

كان الجميع يعجبون بجمال زوويه الخلاب ، فقد كانت فارعة القامة بديعة التكوين ، ووصفت بأنهـا « اجمـل نساء عصرها وأكثرهن سحرا » . وكانت مشهورة بأنها خفيفة الظل ، طيبة القلب ، وعلى جانب كبير من الصفات الجميلة .. ومن اجل ذلك ، كان الناس يرثون لحالها وينظرون اليها على أنها ضحية لزوج مقيت فى مثل سن والدها .. وكان جمالها هذا مثار اعجاب الفنانين ، مما

جعل الرسام روبير لوفيفر يرسم لها صورة رائعة تظهر فيها زوويه وهى متكئة على صخرة صغيرة وترتدى ثوبا من الحرير الاحمر الشفاف .. وكانت هذه اللوحة موضع اطراء الجميع

كانت مدام دى بارال فى السابعة والعشرين من عمرها حين أقام نابوليون فى اقصر فونتنبلو فى عام ١٨٠٧ . ولما كانت ـ بحكم وظيفتها ـ تخرج مع الحاشية أثناء حفلات الصيد فقد لفت جمالها الباهر نظر نابوليون ، وتحدثت عنها بولين مع شقيقها ، فكلفها بأن تنقل اليها بعض الكلمات من حين لآخر .. وها هو ذا كونستان خادم نابوليون الخاص ، يقص قصة زوويه فى مذكراته على النحو الآتى :

« كانت بداخل قصر فونتنبلو حديقة ، لم يكن يدخلها سوى صاحب الجلالة وزوجته فحسب . وكانت هذه الحديقة محاطة بالمبانى من كل ناحية .. فالى اليسار ، كانت هناك الكنيسة الصغيرة بممراتها المظلمة ... والى اليمين ، كان يوجد البهو الكبير . أما المبنى الاوسط ، فكان يحتوى على جناح صاحب الجلالة وزوجته . واخيرا كانت هناك الواجهة ، ذات الطراز القوطى ، التى تقوم من خلفها عدة ابنية ضخمة يسكنها الامراء والاميرات من أسرة الامبراطور . وكانت مدام دى بارال تسكن فى أحد هذه المبانى فى شقة فى الدور الارضى

« وذات مساء اضطرنى جلالته بأن اتوجه خفية الى شقة مدام دى بارال لاسلمها ورقة مكتوبة .. واكد على جلالته بأن اتسلل الى مسكنها ـ فى حذر ـ من خلال نافذة سأجدها مفتوحة . وكان الظلام ضروريا لنجاح مهمتى هذه ، لان اقل ضوء يمكن ان ينبعث من أى مبنى مجاور ، سيكشف امرى لا محالة ..

«وتمكنت اخيرا من الدخول من النافذة .. ولكن قدمى تعثرت باحدى الدرجات العالية فوقعت على الارض محدثا ضجة كبيرة .. ولشد ما كانت دهشتى حين سمعت فى هذه اللحظة صيحة عالية اعقبها صوت باب يغلق فجأة فى عنف !

ونهضت فى صعوبة كبيرة لشدة ما كنت اشعر به من الم فى ركبتى وفى راسى . ثم تحسست طريقى فى بعض جوانب هذا المسكن المظلم ، ولكننى لم اسمع شيئا . ولما خشيت ان أحدث ضجة جديدة قد تتناهى الى سمع اناس لا يحب الامبراطور ان يعرفوا عن الموضوع شيئا ، فقد حزمت امرى وعدت ادراجى اليه واخبرته بكل ما حدث

« وتفحص جلالته جراحى ، ولما رأى ان حالتى ليست خطرة ، انفجر ضاحكا وهو يقول : « آه !.. آه !.. اذن فلا بد أن يعمل المرء حسابا لهذه الدرجة اللعينة من السلم .. حسنا فلننتظر حتى تفيق مدام دى بارال من ذعرها ، وستصحبنى من جديد الى هناك .. !

«وبعد ساعة ، خرجنا من باب غرفة مكتب الامبراطور المطلة على الحديقة ، وسرت مع جلالته فى سكون نحو النافذة التى كانت لا تزال مفتوحة . وساعدته فى الدخول من النافذة كى اجنبه سقطتى ..

« ووصل صاحب الجلالة الى باب «الغرفة» .. ولما امرنى بالانصراف صارحته بقلقى ، ولكنه طمأننى بانه لايمكن ان يكون هناك اى خطر ..

والواقع انه كان أكثر نجاحا منى ، لانه لم يعد الا مع الفجر !

وعند عودته ، وجه الى بعض المزاح ولكنه ذكر ايضا

انه كان من الممكن ان يتعثر فى هذه الدرجة لو لم أخطره بذلك ..

«وعلى الرغم من ان مدام دى بارال كانت سيدة جديرة بأن يتعلق بها جلالته تعلقا شديدا ، الا ان علاقته بها لم تكن سوى نزوة لم تدم طويلا . ويخيل الى ان المشقة التى كان يصادفها الامبراطور فى هذه الزيارات الليلية ، خففت كثيرا من حدة عواطفه الملتهبة نحوها .. ذلك أنه لم يكن مغرما بها الى الدرجة التى تجعله يتحدى كل شىء فى سبيل عشيقته الحسناء .. »

تلك رواية كونستان خادم نابوليون الخاص .. وقد رأينا من قبل أن نابوليون لم يكن فى حاجة الى القفز من النوافذ ليرى احدى السيدات . فقد كان تحت تصرفه منزل شقيقته ، وهو مأوى سرى مضمون ، وعدة منازل أخرى .. فضلا عن أنه كان فى وسعه أن يحتجب كيفما يشاء فى جناحه الخاص . ولذا نرجح القول بأن نابوليون لم يحاول اعادة الكرة لان مدام دى بارال قد رفضته ، وليس لانه لم يكن مغرما بها على حد قول كونستان . ومن ناحية أخرى فليس هناك ما يؤيد هذه الرواية سوى مذكرات تافهة نشرها بعض الكوائين ! .. ولو أن نابوليون نجح فى محاولته مع زوويه ، لكان قد تشدق كعادته بهذا النجاح ، وخاصة مع سيدة جميلة مثلها .. !

***

ولا يسع المرء الا أن يشك فى رواية كونستان اذا ما قارن بينها وبين كلام آخر نسب الى زوج هذه السيدة .. فقد قال الكونت دى بارال فى احدى المناسبات :

« أن زوجتى سيدة ماهرة حقا .. فعلى الرغم من اننا

لسنا أثرياء ، الا أننا نبدو كذلك بفضل عبقريتها .. ويالها من كنز ثمين هذه العبقرية ؟ »

وقد أدعى الكثيرون أن نابليون كان سخيا مع مدام دى بارال ، وان الكونت كان لا يستفسر عن مصدر المال الذى كانت تنفقه زوجته بغير حساب .. ولكن مثل هذه الادعاءات لا تصمد أمام النظرة الفاحصة ، فقد كان الكونت رجلا غيورا بطبعه ، وكان كثيرا ما يسأل فجاة عن زوجته ليتأكد من وجودها فى البيت !

والواقع أن مدام دى بارال لم تعرف طيلة حياتها سوى حبيب واحد تزوجت منه بعد أن أصبحت أرملة ، وبعد ان عاشت سنين طويلة حافلة بألوان العذاب الى جوار زوجها الشيخ العاجز .. ولسنا ننكر بالطبع ان نابوليون قد حاول أن يوقع بزوويه بين براثنه، وتشهد على ذلك لور زوجة جونو ، التى تقول :

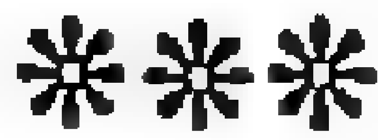
« لقد كان بونابرت يشعر برغبة عنيفة نحو مدام دى بارال التى كانت تخرج فى جميع حفلات الصيد بوصفها فى حاشية بولين » .. وكانت لور هذه سيدة سليطة اللسان تحاول تجريح سمعة كل انسان ، وهو أمر لانملك معه الا أن نصدقها حين تضيف قائلة :

« ولكن الامبراطور لم يستطع أن يرغمها على الاستسلام له ، رغم تعلقه الشديد بها ! »

ولقد حاولت بولين بونابرت ان تقنع زوويه بالاستسلام لرغبة شقيقها الامبراطور . وكانت تريد بذلك أن تضرب عصفورين بحجر واحد ، ولكن الامر كان يتطلب جراة كبيرة، فقد كانت زوويه سيدة فاضلة ، لا تتردد فى أن تضحى بعملها فى البلاط لو أصرت بولين على تنفيذ خطتها . ولدينا

فى هذا الصدد تصريح كتبته بولين فى خطاب لها بعثت به الى واحد من عشاقها العديدين ، ويدعى فوربان . تقول بولين :

« ليست مدام دى بارال بالصديقة الحميمةولابالعدوة اللدود .. وكل مافى الامر انها لا تريد قط أن تخدمنا .. »



كان حبيب زوويه هذا ضابطا شابا فى فرقة الفرسان يدعى جان لويس دى لاروش ، اشتهر بأنه اجمل فرسان عصره واكثرهم أناقة . وقد وصفه احد معاصريه فقال : « لقد كان فضلا عن شبابه الغض ووسامته الفائقة شابا رائع الجسم ذا شجاعة لا مثيل لها ! »

وكان أن وقعت الاميرة بولين بونابرت فى حب جان دى لاروش بمجرد أن وقع بصرها عليه . ومنذ تلك اللحظة ، صممت بولين على ان تفوز به مهما كلفها ذلك من ثمن ، فعقدت مع شقيقها اتفاقا على اقتسام الحبيبين .. أىأن تسهل للامبراطور أمر الحصول على زوويه ، فى مقابل ان يدعها وشأنها مع الفارس الشاب .. !

وذات صباح ، كانت زوويه فى غرفة الاميرة ساعة استيقاظها ، فأطرت بولين على جمال وصيفتها اطراء بالغا ، ثم أنهت كلامها بعد أن تبادلت معها عدة عبارات بغية كسب ألفتها :

ـ هل تعرفين ياعزيزتى ان جلالة الامبراطور معجب بك ويراك ساحرة للغاية .؟

فأجابتها زوويه قائلة :

ـ يبدو أن سيدتى تشعر اليوم بمرح كبير ، ولذلك فانني أقبل مزاحها بكل سرور ..

فقالت الاميرة فى رقة :

ـ ولكننى لا أمزح يا عزيزتى .. انه معجب بك حقا . والمرء لا يرفض بالطبع اية رغبة للامبراطور !

فقالت زوويه بكبرياء :

ـ لقد أخذت قول سمو الاميرة على محمل المزاح البسيط ، ولكن يبدو أن سموها تهدف الى شىء آخر . أما والامر كذلك ، فليس لدى غير اجابة واحدة : اننى لست عظيمة الشأن كى أصبح امبراطورة ، ولكننى احترم نفسى لدرجة أرفض معها أن أكون عشيقة لاى امبراطور !

وغضب نابوليون بالطبع حين علم بالامر .. اما بولين : فقد نجحت اخيرا فى الحصول على موعد من الضابط الشاب . ولكن هذا لم يتردد فى مصارحة حبيبته بالامر ، فوافقت على ذهابه بعد ان جعلته يقسم على انه لن يمكث عند الاميرة سوى فترة وجيزة

وقد روى جان أن الاميرة كانت قد تركت باب حديقة قصرها مفتوحا .. فلما ذهب الى هناك ، وجدها تنتظر فى الحديقة . وما أن وقع عليه بصرها حتى أسرعت نحوه وقادته من يده فى الظلام حتى وصلا أخيرا الى مخدعها بعد أن عبرا عدة صالونات فاخرة الرياش ..

وعاد الضابط الى مسكنه بعد ان انتهى من زيارته

***

ولم تكد تمضى على هذه الزيارة عدة أيام ، حتى ثار الامبراطور ثورة عارمة ، وامر بأن تنفى مدام دى بارال الى اقليم دوفينيه حيث توجد ارضها ، وان يرسل الضابط الشاب الى البرتغال ليقاتل تحت امرة الجنرال بسيير ..

وهناك ، أبلى الفارس بلاء حسنا فى الحرب ، وابدى بسالة نادرة فى المعارك الطاحنة التى كانت دائرة مع الانجليز . ولما رأى الجنرال بسيير مقدار حماس الضابط الشجاع ، أوصاه بأن يخفف من هذا الحماس ، ولكنه لم يستجب للنصح . .

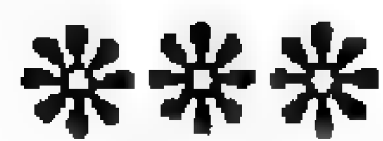
وذات يوم ، استدعاه الجنرال الى مكتبه وخاطبه قائلا :

ـ يا بنى .. استمع الى .. فان ما سأبوح لك به الآن سر يهمك ان تعرفه : ان لدى أمرا بأن أجعلك عرضة للموت فى الميدان ..

وعلى الرغم من ذلك ، لم يكف الفارس عن حماسه الدافق . وبلغت قمة هذا الحماس فى احدى المواقع،حيث كان هناك مدفعان يسببان خسائر فادحة للجيش الفرنسى .. فما كان من الضابط الا أن خرج على رأس فصيلة من الفرسان وقام بهجوم دمر فيه هذين المدفعين ..

وخرج الفارس من المعركة يجر ساقه من خلفه . .

وكاد الفارس ان يضيع تماما هذه المرة ، لولا ان حمله شقيقه على ظهره حتى مركز الاسعاف . وهناك اجريت له عملية كبيرة . وكان جان يمسك بصورة حبيبته أثناء اجراء العملية ويهذى باسمها



ولم تكف بولين عن محاولة استمالة الضابط اليها عن طريق شقيقه .. ولكنه ظل وفيا لحبيبته حتى تزوجمنها بعد ذلك بسنوات حين توفى الكونت دى بارال فى عام ١٨٢٢

تلك هى القصة ، ويمكننا ان نستنتج منها ان نابوليون

لو كان قد ظفر بزوويه ـ ولو مرة واحدة ـ لاغرقها كعادته في سيل من المنح والعطايا . أما لقب «بارون» الذى منحه لزوجها الكونت دى بارال فى عام ١٨٠٧ ، فالفضل فى ذلك يعود لصلة القربى التى تربط بين الكونت وبين جوزيفين ، وليس لسبب آخر ..

أما جان دى لاروش ، ذلك الضابط الشجاع ، فلم يحصل الا على لقب «فارس» ، وقد منح هذا اللقب فى عام ١٨٠٩ ، ومع ذلك لم يتسلم براءته الا فى عام ١٨١١

وقد ظل الضابط وزوجته يحملان طيلة حياتهما كراهية شديدة لنابوليون ، وكذا لشقيقته بولين التى شتتت شملهما فى غير رحمة !



عذراء مدريد

بعد عودة نابوليون من رحلته الشهيرة الى مدينة ارفورت بألمانيا ، أخذت الحوادث فى أسبانيا تتطور تطورا خطيرا ، مما اضطره الى السفر الى هناك ولم تكد تمضى على عودته الى باريس عشرة أيام

وفى ١١ نوفمبر عام ١٨٠٨ ، زحف نابوليون من بورجوس الى مدريد ، فاستسلمت فى ٤ ديسمبر عام ١٨٠٨ ، ثم اخذ يتوغل داخل البلاد بحذر شديد نظرا للمقاومة العنيفة التى أبداها الوطنيون فى وجه هذا المحتل . وكانت معركة مروعة تلك التى رأى فيها نابوليون خيرة رجاله وأحسن اصدقائه يهلكون امام عينيه ، حتى دب اليأس فى نفوس الجنود وسرى التذمر بينهم ، الى درجة أنهم كانوا يحرضون بعضهم بعضا على قتله . وكان يسمع بأذنيه عبارات كهذه صادرة من بعض الجنود : « اطلقوا عليه النار فنستريح منه ! » . ولكنه كان يلزم الصمت من فرط الغم والارهاق

واستمرت الحرب فى أعنف صورة عرفها نابوليون لمدة ست سنوات أوسبع ، خسرت فرنسا خلالها أكثر من مليون ومائتي ألف جندى ، فضلا عن ملايين عديدة من الفرنكات الذهبية

ولما عجز بونابرت عن الحاق الهزيمة بالاسبان بصورة تضع نهاية حاسمة للحرب ، عاد الى فرنسا بدعوى أن تاليران يدبر مؤامرة ضده !

فى تلك الفترة التى قضاها نابوليون فى أسبانيا ــ بين يوم استسلام مدريد ويوم توغله المنكوب الى بنافنتى ــ كانت الفرصة سانحة امامه كى يستمتع ببعض المسرات فى مدينة شامارتان . وكان ينفق المال كعادته على الفتيات دون حساب ، وظهرت فى حياته الغرامية حينذاك فتاة التقطها له من احد المسارح محافظ قصره واكثر قواديه اخلاصا : دى بوسيه البدين ..

يحكى دى بوسيه القصة فيقول :

« كانت الفتاة ممثلة تعمل على مسرح مدريد الكبير ، صغيرة لاتزيد سنها على ستة عشر ربيعا .. جميلة كأنها السحر بعينه . وكانت ذات شعر اسود فاحم ، وعينين تفيضان جاذبية وعذوبة . وقد عرف عنها انها استطاعت ــ برغم ما كانت تتعرض له بحكم مهنتها ــ ان تحتفظ بعفافها وسط هذا الجو المشحون بالخطر والاغراء . ولما شاهدها جلالة الامبراطور تمثل على المسرح ذات مساء ، أخذته الدهشة لفرط جمالها وحيويتها .. »

ويمضى دى بوسيه فى قصته قائلا :

« وكانت هذه الفتاة يتيمة الابوين تعيش مع عمتها العجوز ، وهى امرأة نحيلة سيئة الطبع .. وكانت العجوز لا تمل اطراء جمال الفتاة ومحاسنها فى كل مكان، ذلك لانها كانت تحلم بثروة تهبط عليها من رجل ثرى ذى نفوذ يضع ابنة أخيها فى رعايته .. !

« ولما علم صاحب الجلالة بهذه الصورة المثيرة عن الفتاة ، أبدى رغبته فى رؤيتها .. فهرع دى بوسية على الفور الى عمتها . وما كادت العجوز تعلم برغبة نابوليون حتى رقص قلبها طربا للفرصة السعيدة !!

« وفى مساء نفس اليوم ، ذهبت الفتـــــاة الى قصر شامارتان وقد تزينت بطريقة ساحرة ،وكانت قداستعملت عدة أنواع من عطور قوية ، اعتقادا منها ان ذلك يدخل السرور على قلب الامبراطور . ولم تكن تعلم انه ينفر من رائحة العطر ـ بكل أنواعه ـ نفورا شديدا !

« وادخلت الفتاة على نابوليون فى غرفته ، وما ان رآها حتى تلاشي نفوره من رائحة العطر التى تفوح منها ، نظرا لسحرها وفتنتها ..

« وجلسا يتناولان طعام العشاء ، وكانت الممثلة الصغيرة فخورا وسعيدة لانها ستكون محظية لجلالة الامبراطور ! ويا للاسف .. فان حماقتها التى قادتها فى طريق الخطيئة، جعلتها تفقد أحلامها واعز أمنياتها ! »

يقول كونستان خادم الامبراطور الخاص الذى شاهد بقية القصة :

« دق الجرس فى حجرة الامبراطور بعنف ، فهرولت مسرعا الى الغرفة ، وحينئذ لم أجد غير الفتاة الشابة . اما جلالته ، فكان واقفا فى غرفة صغيرة أخرى ملحقة بغرفة نومه ، وكان يمسك برأسه بين يديه من فرط الاعياء [1]

وصاح يقول بمجرد ان رآنى :

ـ كونستان ! .. خذ هذه الصغيرة بعيدا .. اننى على وشك أن أختنق بسبب عطورها ! .. هيا افتح جميع النوافذ والابواب .. ولكن خذها بعيدا قبل كل شيء ..

وكان الوقت متأخرا لطرد فتاة صغيرة مثلها دون تدبير سابق ، فضلا عما كان فى ذلك من اذلال لكرامتها .. ولكن الامر كان قاطعا لا يقبل الجدل ..

وذهبت لاخبر الصغيرة المسكينة بأمر صاحب الجلالة

.. ولم تفهم فى بادىء الامر ، مما اضطرنى لان اكرر لها القول عدة مرات :

« يا آنسة .. ان صاحب الجلالة يرغب فى ان ترحلى على الفور .. »

واخذت الفتاة تبكى وتتوسل الى كى لا اطردها فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل . وعلى الرغم من أننى أخبرتها بأننى سأتخذ جميع الاحتياطات اللازمة ، وان هناك عربة أنيقة محكمة تنتظر فى الخارج لتوصلها الى البيت ، فانها لم تكف عن بكائها وتوسلاتها الا حين أطلعتها على الهدية التى كلفنى الامبراطور بتقديمها اليها .. وكانت مبلغا كبيرا من المال قدره عشرة آلاف فرنك ! »

وذهب الخادم لمصاحبة عذراء مدريد المعطرة الى بيتها .. وعند عودته الى القصر ، رأى سيده لا يزال جالسا فى غرفته الخاصة وهو يدعك صدغيه بماء الكولونيا ..

ومن الغريب أن نابوليون الذى جاب العالم محرزا النصر فى مئات المعارك ، لم يستطع فى هذه الليلة ان يصل الى سريره الا متكئا على ذراع خادمه كونستان !



الشقراء الحسناء

بعد عودة نابوليون الى باريس من أسبانيا ، بدأ على الفور فى اعداد حملة لهزيمة النمسا هزيمة ساحقة .. وكانت حملة عنيفة بعكس ما كان يتوقع ، ولكنها توجت بالنصر آخر الامر . .

وفى الفترة التى أقامها نابوليون فى فيينا عام ١٨٠٩ ، وعلى الرغم من وجود مارى فاليفسكا هناك ، ظهرت فى قائمة نابوليون الغرامية عدة نساء ، من بينهن فتاة شابة فى التاسعة عشرة من عمرها تدعى ايفاكراوس ..

ففى ذات يوم — اثناء استعراض كبير بميدان شوبنرون — لاحظ نابوليون من بين جمهور النظارة الكبير فتاة حديثة السن .. طويلة القامة بديعة التكوين ، تتميز عن سائر السيدات بملابسها السوداء التى تظهر بشرتها الناصعة البياض ، وخصلات شعرها الشقراء التى كانت تتطاير فى الهواء فتداعب وجنتيها وتزيدها جمالا وسحرا

وسرعان ما عرف نابوليون أن الفتاة الجميلة قد جاءت الى المدينة فى صحبة والدها بالتبنى كى ترى نابوليون .. وكان والدها يدعى فيليب ميهوتى ويعمل قومسييرا فى الحرب

***

وأمر نابوليون بارسال دعوة الى الفتاة لتناول العشاء

على مائدة القصر ، وهذا معناه انه سوف يستقبلها في غرفة نومه مساء اليوم التالى .. !

وسارت المسألة سيرا حسنا لما كانت تتمتع به من سحر وجاذبية ، فضلا عن رقتها وسذاجتها ، وبلغ من تأثير الفتاة عليه انه احتفظ بها قريبة منه طيلة مدة اقامته فى فيينا ..

وكانت ايفا كراوس تعرف اللغتين الفرنسية والايطالية معرفتها للغة بلادها الاصلية .. وكان الامبراطور يجد تسلية كبيرة فى الانصات اليها : وقصت عليه انها كانت ابنة لموظف صغير فى مناجم اوربا .. وكانت اسرتها كبيرة العدد ، فتبناها مينوفى قوميسير الحرب هذا : الذى انعم عليه نابوليون بوسام اللجيون دونير فى مقابل رضاه عن هذه المغامرة

وقبل أن يغادر نابوليون مدينة فيينا ، منح ايفا راسمالا هائلا ، ويدعى الرواة ان السبب فى ذلك هو الجنين الذى كانت تحمله منه بين أحشائها . وفيما بعد ، لحقت به ايفا فى باريس ، حيث وضعت مولودا ذكرا ..

***

وفى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا ، كان الناس فى فيينا يشيرون الى عضو بالبرلمان اشتهر فى ميدان العلم والقانون ، يدعو أوجين ميجرى .. يكاد يكون نسخة اخرى من نابوليون فى ملامحه . وكان من يخالطونه يؤكدون انه ثمرة غراميات بونابرت مع ايفا ، الشقراء الحسناء



طلاق جوزيفين

طلاق جوزيفين

بعد أن انتهى نابوليون مؤقتا من حربه مع النمساويين، عاد الى فرنسا حيث أقام فى قصر فونتنبلو .. وكان مضطرب المزاج سيىء الطبع ، فقد كان فى حاجة لتركيز كل قواه لينتصر فى معركة صعبة من نوع آخر ، الا وهى معركة طلاقه من جوزيفين !

فمنذ أن انتهت حرب النمسا بالنصر لصالح نابوليون، اصبح زواج نابوليون من جوزيفين فى حكم المقضى عليه..

ولم يتوان أعضاء أسرة بونابرت عن استغلال أية فرصة لاذكاء نار الخلاف بين الزوجين . والتجأت بولين بونابرت فى ذلك الى حيلتها التقليدية ، قد دفعت بين ذراعى شقيقها بعشيقة جديدة يغرم بها فترة من الوقت ، فتزداد قسوته على جوزيفين . وكانت هذه العشيقة تدعى كريستين ماتيس ..

وفى يوم الخميس الموافق ٣٠ نوفمبر عام ١٨٠٩ قرر نابوليون أن ينفصل بالطلاق عن زوجته التى كانت اول عشيقة دربته على فنون الحب ..

فى ذلك اليوم ، جاء نابوليون ليتناول طعام العشاء مع جوزيفين ، وكانت تخفى عينيها المحمرتين من البكاء تحت قبعة كبيرة من الجلد الابيض تحجب جزءا كبيرا من وجهها ..

ومضت عشر دقائق وهما لاينبسان ببنت شفة .. وفجأة ، نهض نابوليون من مقعده وخاطبها قائلا :

ـ كيف حال الطقس اليوم ؟

ولم تجب جوزيفين ، فتناول فنجان القهوة قبل ان تقدمه اليه زوجته ، ثم اشاح بيده آمرا للخدم بالانصراف ..

وبعد ذلك بلحظات ، دوت صيحات عنيفة ، وشوهد نابوليون يفتح باب الغرفة وقد بدأ كالتائه ، وقال يخاطب منفذ رغباته دي بوسيه البدين :

ـ ادخل يادى بوسيه واغلق الباب ..

كانت جوزيفين ملقاة على الارض تصيح وتشكو وتقول في صوت يمزق نياط القلب :

ـ كلا ! انني لن أعيش بعد ذلك ..

لقد انتهى كل شيء واصبحت جوزيفين طالقا .. وكان لا بد من كتمان الفضيحة ومنعها من الشجار والصياح

قال نابوليون مخاطبا دي بوسيه :

ـ هل تستطيع ان تحمل جوزيفين الى جناحها عن طريق السلم الداخلي المؤدى الى هناك ؟ .. ولا تنس أن تضعها تحت حراسة سيدات الحاشية .

ووضع دي بوسيه جوزيفين على اريكة ، ودق نابوليون الجرس ليستدعى سيدات حاشيتها ، ثم اسرع بالانصراف وهو يغمغم قائلا : « انني انا الذى استحق الرثاء ! . ان مصلحة فرنسا هي التي دفعتني الى ان اكون عنيفا مع قلبي ، فأصبح الطلاق واجبا ثقيلا لا مفر منه ! »

ولم يلبث نابوليون أن عاد الى غرفتها بعد قليل ، وبدأ في مساومتها من جديد .. وعرض عليها ان يمنحها قصرا ومليونا من الفرنكات في العام .. ولكن جوزيفين لم ترض

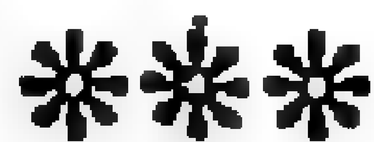
بذلك . واضاف نابوليون قصرا ثانيا الى العرض السابق، ولكنها لم تتزحزح عن موقفها . وضاعف عرضه حتى وصل الى مليار فرنك فى العام (١) ، وثلاثة قصور هى قصر لامالميزون والاليزيه ونافار ، فضلا عن تسديد جميع ديونها .. وحينئذ وافقت على الطلاق

وبعد قليل ، خرج تاليران ــ الذى كان حاضرا ــ عن صمته وبروده ، وصاح قائلا :

ــ ياله من شيء مريع حقا ! ــ ايطرد الرجل زوجته هكذا ؟! انه عمل يتطلب الانتقام ، وسأنتقم لها !

ولكن تاليران كان يبغى الانتقام من أجل نفسه لا من أجلها ..

أما نابوليون ، فقد سخر من تاليران ، وأسرع الى عشيقته كريستين التى سبق أن ذكرنا أن شقيقته بولين قد دفعت بها بين ذراعيه لتزيد من قسوته على جوزيفين!



والمعروف أن نابوليون قد احتجب فى قصر تريانون وقلبه مفعم بالحزن حينما غادرت جوزيفين قصر التويللورى ومعها ببغاؤها المفضل وعدد هائل من الفساتين . وقد تحدث الكثيرون عن « عظيم تضحية » نابوليون وحزنه العميق الذى كان يريد اخفاءه عن الجميع باحتجابه فى قصر تريانون . ولكن هذا الكلام فيه كثير من المبالغة .. اذ الواقع أن نابوليون كان يخفى عشيقته كريستين فى هذا القصر ، وكان يريد ان يكون معها على انفراد دون أن تزعجه تقاليد البروتوكول ! ولم تخرج من عنده الا قبل زواجه بـ « مارى لويز » بيوم واحد

---

(١) اى ما يساوى الان مليون جنيه تقريبا

أيهن أحبها نابليون ؟

لقد اتصل نابليون — فى حياته — بنحـــو مائة امرأة وفتاة ، ولم تستغرق هذه الصلة — فى بعض الاحيان — أكثر من بضع دقائق . وقد أهملنا ذكر النسوة اللاتى لم نعرف أسماءهن لانهن مازلن مجهولات لنا ..

والآن نحب أن نتساءل : أي النساء كن أكثر وضوحا وظهورا فى حياته ؟ .. انهن بالتأكيد : خطيبته الصغيرة أوجينى ديزيريه ، وجوزيفين ، والممثلة جورج ، ومارى فاليفسكا ، ومغنية الاوبرا جوزبينا جراسينى ، ومارى لويز زوجته الشرعية الثانية

وعلى الرغم من أن أولئك النسوة قد ارتبطت أسماؤهن بحياته ، لفترة من الزمن طويلة كانت أم قصيرة ، الا انهن لم يكن يشعرن نحوه بعاطفة صادقة عميقة ، اللهم الا ذلك الاندفاع العاطفى الذى أبدته نحـــوه خطيبته الصغيرة ديزيريه ، ولكنه كان اندفاعا ساذجا مؤقتا .. فضلا عن انهن يبدو عليهن الحزن العميق ساعة نهايته

ولقد كان نابليون يطارحهن الغرام .. فهل كان يحبهن حبا حقيقيا ؟

من المؤكد انه قد رغب فى تملكهن ، وانه ملهن بعد فترة من الوقت طالت أم قصرت .. بل ان مارى فاليفسكا نفسها ، التى أولع بها ولعا عنيفا حتى انه كان يؤكد انه

لا يستطيع ان يعيش بدونها ساعة واحدة ، فقدت مكانتها بعد أن استسلمت له بعدة أسابيع !

والواقع أن قلب نابوليون تعلق بأمرأتين فقط ، وكان تعلقه باحداهما أكثر بكثير من تعلقه بالاخرى . هاتان المراتان هما : جوزيفين دى بوهارنيه ، ومارى لويز ..

وقد عاشر نابوليون زوجته الثانية مارى لويز وقتا اطول بكثير من اى فترة قضاها مع اى من عشيقاته . ولكن مارى لويز كانت لا تفرض شخصيتها عليه ، ومن ثم بدت فى عينيه طفلة صغيرة . والواقع انها كانت طفلة ساذجة مراهقة حين تزوجته .. وكان من ناحيته لا يستطيع أن ينظر اليها كامرأة عشيقة . وكانت بدورها تشعر بالحرج فى وجوده ، وتبعث فى البلاط وفى الشعب شعورا بالكآبة .. انها لم تستطع أن تثيره وتبهره مثلما فعلت عمتها مارى انطوانيت مع الملك لويس السادس عشر .. ذلك ان مارى انطوانيت كانت سيدة من نوع آخر . ولكن نابوليون ابتلع صدمته ، واخترع لمن يحيطون به وللاجيال التالية شخصية أضفاها على زوجته الثانية .. فهل اعتقد بدوره فيما اخترعه بنفسه ؟ ان الاجابة عن سؤال كهذا صعبة للغاية .. ولكن الشىء المؤكد ، انه كان يعاملها كطفلة ، وزوجة صغيرة ، وفتاة تحت الوصاية !

ويبقى اسم جوزيفين بعد ذلك بارزا .. وكانت اكاليل الغار تعود اليها على الدوام .. اذ لا جدال فى أن اية امرأة أخرى لم تشغل فى حياة نابوليون ـ وتحديد مصيره ـ مكانا كبيرا هاما مثل الذى شغلته جوزيفين

لقد تقابلا فى عام ١٧٩٥ ، ودام زواجهما نحو خمسة عشر عاما .. وأسهمت فى صعود نجمه وارتقائه لسلم المجد ، انها منحته الحماية ، وأعطته حاشية ، وكانت

سيدة بلاطه .. وفوق كل ذلك علمته الحب وعودته على مواهبها فى شئون الغرام ، حتى انه كان لا يملك الا ان يعود اليها خاضعا من حين الى آخر ..

أن جوزيفين هى التى سحرت روح فتى كورسيكا حين كان شابا صغيرا يجهل العالم .. واستمر تأثيرها الحسى عليه مدة طويلة ، حتى انه كان يتحدث عن جسمها بألفاظ صريحة بعد انفصالهما بعشر سنوات ، وقبل احتضاره بعدة ايام ، علق طويلا على ما ضيه مع هذه المرأة ، وعلى قصة علاقتهما وزواجهما ، وهذا آخر ما قاله فى هذا الموضوع :

« هل كانت جوزيفين تعطى ؟! نعم .. ولكنها لم تكن تحرم نفسها من شيء لكى تعطى .. انها كانت تمد احدى يديها لمساعدة احد الناس ، وتمد اليه اليد الاخرى لتأخذ منه .. وكانت كاذبة ومسرفة الى اقصى حدود الكذب والاسراف . ومع ذلك ، فقد احببتها حبا حقيقيا واعجبت بها ايما اعجاب على الرغم من اننى لم اكن احترمها .. لقد كانت امرأة حقيقية بمعنى الكلمة »

لقد احتفظت جوزيفين بسلطانها على نابوليون لانها هى التى علمته ملذات الحب .. ولكنه كان يحتقرها من الناحية الاخلاقية احتقارا يكاد يكون تاما . ولم تكن جوزيفين على قدر يذكر من الثقافة أو القوة العقلية ، فقد كانت لا تحب الكتب أو الموسيقى . والمرء لا يستطيع ان يعثر على كلمة واحدة خرجت من فمها اعجابا بتحفة فنية أو تعقيبا على حدث جليل !

...

ولم يكن نابوليون يغفر لها ضعف اخلاقها ويتساهل معها فى كل شيء الا لانها كانت تتحول فى خلوته معها الى انثى تتجسم فيها جميع عوامل الاغراء ..

فهرس

صفحة

مقدمة الكتاب ٧

غرام نابوليون قبل زواجه بجوزيفين

اول غرام ١٧
ايام المرح والشباب ٢٢
الاديبة السويسرية ٢٥
الوارثة الطموح ٢٧
مدام بريور ٣٠
نقطة ضعف ٣٣
افكار عن الحب ٣٦
زوجة القائد العام ٣٩
مارجريت ٤٣
حرب للتسلية ٤٨
الخطيبة الصغيرة ٥٢
زواج لم يتم ٥٦

غرام نابوليون بزوجته الاولى جوزيفين

جوزيفين ٦٣

صفحة

غرام نابوليون أثناء زواجه بجوزيفين

مغامرة فى القاهرة ٨٩
مغنيـة الاوبرا ١٠٢
مفاجأة فى الليـل ١٠٧
لـويز ١١٣
ورطـة ١١٩
انطـوانيت ١٢٥
فيليسيتيه اخرى ١٣٠
مـؤامرة ١٣٣
اسـتيفانى ١٣٧
فتـاة من برلين ١٤٢

غرام نابوليون بالكونتيسة البولندية

مـارى فاليفسكا ١٤٩

مغامرات نابوليون بعد معركة فريدلاند

بطـولة فـارس ١٩٣
عـذراء مدريد ٢٠٢
الشـقراء الحسناء ٢٠٦

طلاق جوزيفين

طلاق جوزيفين ٢١١
ايهن احبها نابوليون ؟ ٢١٤

وكلاء مجلات دار الهلال

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن علي نحاس - ص.ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد - ص.ب ٢١

البرازيل :
Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo, BRASIL

سيراليون :
Messrs. Allie Mustapha & Sons.
P.O. Box 410,
Freetown Siera Leone

سنغافورة :
Ahmed Bin Mohamad Bin Samti.
Almaktab Attijari Assharqi,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجلترا :
ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU.
7. Bishopsthorpe Road,
London S. E. 26,
ENGLAND

نيجيريا :
Mr. Mohamed Said Mansour.
Atlas Library Company,
76, Nnamdi Azikiwe Street
LAGOS NIGERIA

هذا الكتاب

يتناول هـذا الكتاب ((غراميات نابوليون)) Les amours de Napoleon جانبا مجهولا من حياه عبقرى نادر الذكاء ، يصوره التاريخ قاهـــرا عتيدا وبطلاعسكريا مهيبا ، أحرز - بفضل نبوغه وعبقـريته - فى ميادين القتال ، انتصارات باهرة. ولـــكنه انتصر فى الواقع - فى معارك ((كيوبيد)) اكثر مما انتصر فى معاركه الحربية !

وقد استطـاع مؤلف الـكتاب بفضـل مراجعتـه لمئات الوثائق والرسائل ودراســـته لكتابات معاونيهوأقوالهم ، أن يرسمصورة واقعيةطريفة لهذه المعارك الغرامية العديدة ، تكشف عن الـكثير من دخائله وتلقى ضوءا على الجوانب الخفية من حياته الخاصةوعلاقته بالمرآة ..